أبو فهر
محمود محمد شاكر

قضية الشعر الجاهلي
في كتاب ابن سلام

وما سرّني أنني في الحياة وإن بان لي شرفٌ وانتشر

شيخ المعرّة

الناشر

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

دار المدني بجدة
شارع الصحافة حي مشرفة
تليفون - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت. اللهم صل على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل، وعلى سائر النبيين اللهم ارض عن صحابته والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

دعت جامعة (الإمام محمد بن سعود) العلامة الجليل محمود محمد شاكر ليحاضر طلابها، فألقى هذه المحاضرة الممتعة عن الشعر الجاهلى، وكان ذلك فى عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م، وقد تولت مجلة العرب نشر هذه المحاضرة فى العام نفسه، ثم لم يقدَّر لها أن تنشر بعد ذلك التاريخ، فكان حقا علينا أن ننشرها مرة أخرى.

وقد سُميت هذه المحاضرة بـ (قضية الشعر الجاهلى فى كتاب ابن سلام). وهى على صغرها شديدة الأهمية فى كشف الوجوه الملثمة التى أحاطت برسالة كتاب ابن سلام (طبقات فحول الشعراء)، والتى أثارت ثلاث قضايا هى:

القضية الأولى: قضية عمر الشعر الجاهلى الذى وقع إلينا، وهى قضية متفرعة عن أولية الشعر نفسه فى لسان العرب.

والقضية الثانية: قضية شعراء الجاهلية المعروفين، وما انتهى إلينا من أشعارهم، ومقدار هذا الشعر.

والقضية الثالثة: قضية وضع الشعر ونحله شعراء الجاهلية، أهى صحيحة أم باطلة؟ فإن صحت فأين المنحول في ما وصلنا عن العلماء الرواة من أشعارهم؟

* * *

وقد قادت رسالة ابن سلام إلى كثير من الشك فى صحة الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا، وذلك لأنها لم تفهم على وجهها الصحيح، ولم تقرأ كما ينبغى. لذا فقد كانت هذه المحاضرة مزيلة للإبـــــهام الذى اكتنف رسالة

ابن سلام ، كاشفة عن كثير من الغموض الذى أحاط بالشعر الجاهلى وروايته .

اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسررنا وما أعلنا . والله المستعان على كل أمر ، وغفرانك اللهم .

مصر الجديدة
٣ شارع الشيخ حسين المرصفى
السبت : ١٠ من المحرم ١٤١٨هـ
١٧ من مـايو ١٩٩٧م

فهر محمود شاكر

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك لا شريك له. هو الواحد القهار. وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمدًا عبده ورسولهُ وصفوته من خلقه، أنزل عليه القرآن العظيم كلامَ الله ليقرأه على الناس على مُكْثٍ، فأدّى الأمانة، وبلغنا رسالة ربّه، ﷺ تسليمًا كثيرًا. وصلى الله على أبوينا إبراهيم وإسمعيل وعلى سائر الأنبياء صلاة طيبة.

وبعدُ:

كانَ مفروضًا، أو هكذا سوّلت لى نفسى، أن أرتجل كلمة أجعلها مدخلًا إلى ما سوف أحدثكُمْ عنه، ولكن لما دنا موعد هذا اللقاء خفتُ وجزعتُ، فآثرتُ أن لا أورِّط نفسى فى أسبوع واحد مرتين، وحسبى ما ورّطنى فيه أخى وصديقى أبو فهد، الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركىّ، منذ أيام قلائل كما يعلم بعضكم، غفر الله لى وله. فأنا أجد حَرَجًا شديد الشراسة قابضًا على أكظامى، يأخذنى أخذًا عنيفًا إذا ما قُدِّر علىّ أن أقف فى جمع من الناس مرتجلًا للكلام. فهذه ليست صناعتى، لم آلفها ولم أمارسها قطُّ، صناعتى هى حملُ القلم بين أنامِلِى فى خلوة بعيدًا عن الناس، فى كَنَف السكينة والاطمئنان، حيث لا يشغلنى عما أريده خوفٌ ولا تردّد، ولا عينٌ تحملقُ فى وجهى، ولا أذنٌ تُصْغِى تنازِعُنى لسانى، وحيث لا يبلبلنى صَوْت نفسى وأنا أسمعُ كلامًا قد فَصَم عنّى، ثم لا أملك ردَّه أو تغييره إن أخطأت أو جُرْت أو تهاويتُ فى زَلَلٍ، فإنّ هذه البلبلة بين البسط والقبض، خليقةٌ أن تتركنى كالمخنوق لا يجدُ مساغًا للتنفس. نعم، فأنا لا أجدُ حريتى إلّا مع القلم، فهو وحده الذى يستطيع أن يتحدّث عن نفسى مبينًا عنها، غير متردّد ولا خائف ولا متهَيِّبٍ ولا متلجلج. ألفتُ هذه الحرية وأحببتُها، حتى بطل عملُ لسانى وشَفَتَىَّ أو كاد، وصار القلم وحده هو لسانى الذى أتحدث به إلى جموع

الناس . هذا عذرى ، فإن قبلتموه فهى مِنَّةٌ لكم علىَّ ، وإن كرهتموه فلم تقبلوه ، فأنا على كُلِّ حالٍ لا أستطيع أن أفارق حُرِّيتى ، لأقع فى أسر من لا يرحمنى . ولستم به إن شاء الله .

وأظنُّ أنَّ أكثركم قرأ أو سَمِع أنى سألقى سلسلة محاضرات . تحمل أسلوبًا جديدًا فى الدراسات الأدبية كما جاء فى إعلان الجامعة ، وهذا تعبير مألوف متعارفٌ عليه فى جميع الجامعات ، ولكنى كعادتى ، أخافُ الأوهامَ التى تنشئها مفردات اللغة فى أذهان القارئين والسامعين ، فرأيته واجبًا علىَّ أن أزيل وهمًا كبيرًا تحملُه هذه الكلمات . فأنا بلا شكٍّ عندى ، لستُ محاضرًا ، لأنى لم أعالج المحاضرة قطُّ فى حياتى ، بل يحسنُ أن أقول لكم : إنى لم أستمع إلى محاضرات إلّا فى صدر حياتى ، حين كنتُ طالبًا فى الجامعة ، وحين كنت شابًا صغيرًا أتابع بعض ما كان فى المحاضرات فى زمانى الأوّل البعيد ، ثم بَدَا لى ، وأنا فى شَرْخِ الشباب ، أن أعتزل الحياة العامة بعض الاعتزال ، فلم أسمع فى خلال هذه العزْلة سوى محاضرات قليلة جدًا ، كنت أسمعُها أحيانًا غارقًا فى الدهشة من قدرة المحاضر المرتجل على التدّفق فى حديثه ، كأنه يقرأ من كتاب . كيف يتمُّ له هذا ؟ لا أدرى . وكنت أتمنَّى بينى وبين نفسى أن أكون كمثله ، ولكن العجز كان يقف دائمًا حائلًا بينى وبين ما أتمنَّى . كنت أقول لنفسى أحيانًا : هذا المحاضر بلا شكٍّ ، قد أُوتِىَ قدرًا كبيرًا جدًا من شىء حُرِمتُه ، وهو شجاعةُ النظرة ، وإلّا فكيف يلقى هذا الجمع الكبير من الناس وعيناه فى عيونهم ؟ مئات العيون تنظر فى عينيه ، كيف يتلقَّى هذه السهام النوافذ بلا رهبةٍ ؟ مئات العيون تحيطُ به وتَجُسُّهُ وتقلِّبهُ وتَزُوزهُ ، تأخذه وترفعه وتضعهُ ، وتنشُره وتطويه ، وتتداوله بالمسِّ الرفيق والمسِّ الخشن ، كأنه ثوبٌ عند بَزَّازٍ تقلّبه أيدى المشترين . كيف يطيق هذا ؟ كيف يصبر له ؟ لا أدرى . وأنا الآن بينكم قد وقعتُ فى مثل هذه التجربة المخوفة ، ولا أدرى كيف أجد عواقبها فى نفسى ، بعد أن أنزل عن هذا المنبر ، ثم أفارقكم إلى الفندق ، ثم أخْلُوَ بعد ذلك فى غرفتى أتأمَّل ما كان منّى ومنكم كيف كانَ . تجربةٌ جديدةٌ ، أرجُو أن أجدَ

لها لذَّةَ كُلِّ جديدٍ، إن صدق الحطيئة فى قوله:

لكُلِّ جديدٍ لَذَّةٌ، غيرَ أنَّنى وَجَدتُ جديد الموت غير لذيذ

وقد صدقَ في الثانية بلا ريب، فهل هو صادقٌ فى الأولى حيث جعلها عامةً مستغرقة لكُلِّ شىء؟ لا أدرى الآن. واللهَ أستعينُ على ما كُتِبَ علىّ، وأسأله اللطف فى قضائه وقدرِه. بيد أنّ الأساتذة الكبار من المحاضرين المتمكنين، قادرون على معونتى، وعلى التخفيف عنِّى، بإرشادى إلى حقيقة هذه التجربة، وهم الآن جلوسٌ معنا يسمعون ما أقول، فَعَسى أن يتكرَّموا على متطفِّل وابن سبيل، يسألهم ما لا يرزأهم شيئا، إلّا أن يأخذوا بيده ليخرجوه من ورطته وحيرته ومخاوفه، وهذا قليل من كثير فَضْلهم على كُلّ طالبِ علم مسترشد.

هذا والمحاضر محتاجٌ، فيما أظنُّ، إلى قدر كبير جدًّا من التنبُّه الخاطف المتتابع، فإنه يلقى جمعًا كبيرا من الناس تختلفُ أسماعُهم فى تلقِّى ما يسمعون، ويختلف قدرُ اهتمامهم بما يسمعون، فينبغى أن يكون قادرًا على إدراك ذلك، لا بهذه المعرفة وحدها، بل بدقّة ملاحظة وجوه الناس وحركاتهم فى مجالسهم، فيسرع ابتداءً إلى إخراجهم من ممّا ينتابهم من الاعتراض عليه أو الضيق بحديثه، بمهارة فائقةٍ، حتى يفرغ من محاضرته وقد أرضَى جميعهم، وشغلهم عن حديث أنفسهم بحديثه. وليس هذا مكان تفصيل معنى «المحاضرة» وواجب المحاضر، ولكنى أشير إليه لأعلمكم أنى من كُلِّ هذه المواهب فقيرٌ معدمٌ.

وأما «الدراسة الأدبية»، فأنا فى الحقيقة غير قادرٍ الآن لضيق الوقت على أن أفصِّل لكم رأيى فيها، وفى الاختلاف الذى أراهُ بين الدراسة الأدبية المحضة التى يتولاها أساتذة الجامعة فى دروسهم وكتبهم، وبين شىء آخر لا يقومُ إلّا على مقدّمةٍ صحيحة من «الدراسة الأدبية المحضة». ولكنه يخالفها فى النتيجة وفى الأسلوب، وهى كتابة الكاتب الذى يتناوَلُ نفس ما تتناوله الدراسة الأدبية المحضة، ولكنه يصوغها صياغة كاتبٍ لا صِيَاغة أستاذ دارس. فأنا فى الحقيقة

أوَّلُ الرجلين، لأنّ صناعتى هى الكتابة لا غير، ولأنِّى لا أحبُّ أنْ أكون مرةً أخرَى متطفِّلًا على الأساتذة الدارسين، مقحمًا نفسى بينهم. ومع ذلك، فأنا أرجو أن أوضح لكم الأمر بعض التوضيح، فأنا حين أتناول ما يتناوله الأستاذ الجامعى الدارس، أبدأ القراءة دارسًا متفرّغًا للدرس على «منهج» بينته منذ إحدى عشرة سنة فى بعض ما كتبت، حيث قلت:

«لفظ: المنهج، يحتاج منى هنا إلى بعض الإبانة، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن، بل أريد «ما قبل المنهج»، أى الأساس الذى لا يقوم المنهج إلا عليه. فهذا الذى سميته هنا «منهجًا» ينقسمُ إلى شطرين: شطرٍ فى تناول المادة، وشطرٍ فى معالجة التطبيق.

«فشطر المادة يتطلّبُ قبل كُلِّ شىء، جمعَها مِنْ مظانها على وجه الاستيعاب المتيسّر، ثم تصنيف هذا المجموع، ثم تمحيص مفرداته تمحيصا دقيقًا، وذلك بتحليل أجزائها بدقة متناهية، وبمهارة وحِذقٍ، حتى يتيسَّر للدَّارس أن يرى ما هو زيفٌ جلياًّ واضحًا، وما هو صحيح مستبينًا ظاهرًا، بلا غفلة وبلا هوًى وبلا تسرّع».

«أما شطر التطبيق، فيقتضى إعادة تركيب المادة بعد نفى زيفها وتمحيص جيِّدها، باستيعابٍ أيضًا لكُلِّ احتمال للخطأ أو الهوى أو التسرُّع. ثم على الدارس أن يتحرَّى لكُلِّ حقيقة من الحقائق موضعًا هو حقُّ موضعها، لأن أخفى إساءةٍ فى وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها، خليقٌ أن يُشَوِّه عمود الصورة تشويهًا بالغ القبح والشناعة»[1].

هذا ما قلت قديمًا، وأنا بلا شك ملتزمٌ به فى القراءة قبل الكتابة، ولكن الفرق بين ما أكتبه بَعْدئذٍ، وبين ما يكتبه الأستاذ الدارس، هو أنه بأستاذيته يلزمُ نفسه بإثبات كُلِّ ما وقف عليه مردودًا إلى مرجعه = أما أنا فعبْدٌ لصناعتى. وهى الكتابة، أتخيَّرُ من مادة الدراسة الصحيحة ما أريدُ، وأفرِّق ما كان حقّه

---

(١) انظر تفصيل الكلام على ذلك فى (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) ص ٢٢ وما بعدها.

عند الدارس أن يجتمع ، وأتنقَّل مع الخواطر من معنى إلى معنى ، ولا أكاد أردّ إلى المراجع إلّا ما لابُدَّ من ردّه ، وأقف على أشياء يتجاوزها الدارس فأطيل الوقوف ، وفروق أخرى كثيرة جدًا ، أخشى أن أتمادى بها وتتمادى بِى ، حتّى أضيع وقتى ووقتكُمْ ، ولكنها على كل حالٍ ظاهرةٌ فيما كتبت قديمًا وحديثًا ، ولكنّى رأيتُ أكثر أصحابنا قد غفل عنها .

وإذنْ ، فينبغى أن أبرىء ذِمّتى فأقول لكم : إنى لست محاضرا ، ولست أستاذًا جامعيًا دارسًا ، ولكنى حين تورطت فى هذا الأمر أصررت على أن أبقى كاتبًا ، محاولًا بعض المحاولة أن أتشبَّه بالمحاضرين فيما أكتب على جهلٍ منى بالمحاضرة ، ومحاولًا أيضًا أن أتشبَّه بالأساتذة الدارسين ، مع أنّى مشاركٌ لهم فى الأصْل ، وهو الدراسة التى أمارسها بصرامةٍ كما يمارسونها ، ولذلك فسيبقى ما تسمعونه منى كتابةً أوّلًا ، ثم محاضرةً على إشفاق من الإِخفاق فى التجربة ، ثم دراسةً أدبية مقاربة ، أخشى أن يتلقاها الأساتذة الكبارُ الحاضرون اليوم معنا ، على مضض بشىء من الامتعاضِ ، ولكنى أرجو أن لا يجدوا ذلك فى أنفسهم لأنِّى أشاركهم مشاركةً تامة فى أصول الدراسة ، وفى الالتزام بمنهج ارتضيتهُ ، لا يضرُّهم أن يخالف مناهجهم بعض المخالفة . ومع ذلك ، فكان ينبغى أن لا أشُكَّ فى قدرتهم على التغاضى عن هذه المخالفة التى ارتكبتها ، لأَنهم أرحبُ الناس صدورًا ، وأعظمهم تسامحًا ، وقد غمرونى جميعًا بمودة لا أنساها ، وبِحُسْنِ لقاءٍ وتفقُّدٍ ، لا يدعُ أحدهما للشك فى النفس موضعًا .

حين دعيتُ إلى هذه الجامعة ، بدا لى أنْ أجعل أحاديثى عن شعر الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، فلما مضيتُ فى دراسة شعره ، تبيّن لى أن أبدأ بحديث عن الشعر الجاهلىّ ، لأن رأيى فيه لا ينفصل البَتّة عن رأيى فى شعر الأعشى ....

أجدهُ أمرًا لابُدَّ منه أن أتحدث حديثًا موجزًا عن الشعر الجاهلىِّ عامةً ، قبل أن أبدأ حدِيثى عن شعر الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، وشعره الذى وصل إلينا فى ديوانٍ مجموع ، هو من رواية أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، مولى

بنى شيبان ، وهو الإمام الذى انتهت إليه إمامة أهل الكوفة ، ولد سنة مئتين ، وتوفِّى ببغداد ليلة السبت لعشر خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين ومئتين .

وبعض هذا الحديث عن الشعر الجاهلىّ لابُدَّ منه ، لأنه لا ينفصل البتة عن رأيى فى شعر الأعشى ، وفيما وصل إلينا منه ، ولا عن رأيى فيما قالَهُ بعض علمائنا الأقدمِين في بعض قصائده التى انتهت إلينا أنها مصنوعة ، ولا عن رأيى فيما ادّعاه بعضُ المُحْدَثين من الحكم على كثير من شعره ، أو على أكثر شعره ، أنّه موضوعٌ منحولٌ .

وعندى أنّ أكبر القضايا التى يُثيرها أمر « الشعر الجاهلى » ثلاث قضايا :

القضيّة الأولى : قضيَّةُ عُمْر الشعر الجاهلىِّ الذى وقع إلينا ، وهى قضيّةٌ متفرّعةٌ عن أوّليَّة الشعر نفسه فى لسان العرب .

والقضية الثانية : قضية شعراء الجاهلية المعروفين ، وما انتهى إلينا من أشعارهم ، ومقدار هذا الشعر .

والقضية الثالثة : قضية وضعِ الشعر ونحلِه شعراءَ الجاهلية ، أهى صحيحة أم باطلة ؟ فإن صحَّت ، فأين هذا المنحولُ فيما وصلنا عن العلماء الرُّواة من أشعارهم ؟

وهذه القضايا الثلاث متداخلةٌ متشابكةٌ ، ومن صواب الرأى أن يحاول المرءُ أن يوضِّح مواضع الفصْلِ بين كُلِّ قضية وقضيّة . لأن هذا الفصل بين متداخلاتها خليقٌ أن يضيء الطريق للباحث ، ويعينَه على تصوُّر قضيّة الشعر الجاهلىّ كُلِّه تصوُّرًا صحيحًا أوْ قريبًا من الصحيح ، وسأحاول أنْ أفعل ذلك ، مستعينًا بالله ، وباذلًا غاية جُهْدى اليومَ ، بعد زمانٍ طويل مَضَى على مِحْنتى محنةً شديدةً قاسيةً بأمر الشعر الجاهلىّ فى أوّل عُمْرِى ، وما وقعتُ يومئذ فيه من الاضطراب حتّى استقر قرارى على صحَّة ما انتهيتُ إليه من الثقة بصحة هذا الشعر ثقةً لا تتزعزع ، فرميتُ كُلَّ ما كان يومئذٍ دَبْر أذنى ، وانطلقتُ أدرُسُ الشعر نفسه ، وبلذّة أجدها فى دراسته . غير مبالٍ بكُلِّ ما كانَ من

اضطرابى حتى انتهيت إلى الاستقرار والاطمئنان إلى صحة هذا الشعر . فالآن بعد هذا الزمان المتباعد . أُحاول أن ألمَّ شعثَ ما انتشر وضاعَ ونُسِيَ من أسباب ثقتى بهذا الشعر .

* * *

أمّا القضية الأولى ، وهى قضية عمر الشعر الجاهليّ وأوَّليته ، فإنى رأيتُ أكثر الباحثين يؤُولُون فى الحديث عنها إلى قول أبى عثمان الجاحظ ، (المولود سنة ١٥٠ ، والمتوفى سنة ٢٥٥ هـ) ، لأنه من أقدم ما قيل فى هذه القضية ، ولثقة الناس بعقل الجاحظ ونظره . فلذلك أرى أن أُثبت هنا مقالته كُلَّها التى تتعلَّقُ بالشعر ، فى خلال ما أفاض فيه من ذكر فضل الكتابة والكِتَاب ، وهذا نص ما قاله فى كتاب الحيوان (١/٧١:٧٥)

« ...فكلٌّ أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها وتحصين مناقِبها على ضرب من الضروب وشكلٍ من الأشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلامِ المقفَّى ، وكان ذلك هو ديوانها... وذهبت العجمُ على أن تقيِّدَ مآثرها بالبنيان... بَنى أردشير بَيضاءَ إصطخر ، وبيضاء المدائن ، والحَضْرَ ، والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس . ثم إن العرب أحبّت أن تشارك العجم فى البناء ، وتنفرد بالشّعر ، فبنوا غُمدان ، وكعبة نجران ، وقَصْر مارد ، وقصرَ مأرب ، وقصرَ شَعُوب ، والأبلق الفردَ ». ثم انتهى أبو عثمان إلى أن قال : « وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد صغيرُ السنّ ، أوّلُ من نهجَ سبيلَهُ وسهَّل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حُجْر ، ومهلهل بن ربيعة . وكُتُبُ أرسطاطاليس ، ومعلِّمِه أفلاطون ، ثم بطليموس ، وديمقريطس وفلانٍ وفلانٍ قبل بدءِ الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب . ويدلُّ على حداثة الشعر قولُ امرىء القيس بن حُجْر :

إنّ بنى عوفٍ ابْتَنَوْا حَسَبًا	ضَيَّعه الدُّخْلُلونَ إذ غَدَرُوا
أدَّوْا إلى جَارِهِم خُفَارَتَهُ	ولم يَضِعْ بالمغيبِ من نَصَروا

لم يفعلُوا فِعْلَ آل حنظَلَةٍ إنّهُمْ، جَيْرِ، بئس ما ائتمروا
لا حِمْيَرِيٌّ وفَى ولا عُدُسٌ ولا اسْتُ عَيْرٍ يَحُكُّها الثَّفَرُ
لكن عُوَيرٌ وَفَى بذمّتِه لا قِصَرٌ عابَهُ ولا عَورُ

فانظركم عُمْر زرارة؟ وكم كان بين موت زرارة ومولد النبى ﷺ؟ فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتى عام»، وانتهت مقالة أبى عثمان.

وهذه الأبيات التى استدلّ بها أبو عثمان، يقولها امرؤ القيس فى شأن مقتل أبيه حُجْرٍ، لما قتلته بنو أسد، فانحازت ابنته هند هى وقطينها إلى عُوير بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم، فأجارها وفرَّ بها ورمى بها النّجادَ حتى أطلعهَا نجران وقال لها: «إنى لا أغنى عنْكِ شيئًا وراءَ هذا الموضع، وهؤلاء قومك، وقد برئت خفارتى». وكان امرؤ القيس حين قُتِل أبوه حجر مقيمًا فى بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، لأنّ ظِئرهُ كانت امرأةً منهم. وبيّنٌ من هذا الشعر أنّه هو وأختَه استجارا ببنى حنظلة فلم يجيروهما. استجارا بحميرىّ بن رياح بن يربوع بن حنظلة وعُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة. و«عُدُس»، هو أبو زرارة بن عُدُس، ، وزُرارة بن عدس، كان أحد حكام تميم فى الجاهلية. وكان قد أسنَّ، وكان موته قبل يوم أوارة الثانى بقليل، وذلك على عهد عمرو بن هند، الذى حَرَّق بنى تميم، فقيل له «محرق»، وهو «مضرّط الحجارة»، وهو «عمرو بن المنذر ابن ماء السماء». وكان مولده ﷺ، كما فى تاريخ أبى جعفر الطبرى (٢ : ٩٤) لثمانى سنين وثمانية أشهر من ملك عمرو بن هند بالحيرة، وذلك فى زمن كسرى أنوشروان، وهو عام الفيل الذى غزا فيه أبو يكسوم الأشرم بيت الله الحرام يريد هدمه.

وظنّى، وهو ظاهرُ الصوابِ إن شاء الله، أنّ أسلوب الجاحظ فى استظهاره هو هذا: كان موتُ زُرارة بن عُدُس قُبَيل مولد رسول الله ﷺ، فهذه نحو من خمس وأربعين سنة إلى أن بعث الله رسوله بالإسلام على رأس أربعين سنة من

مولده . وزرارة بن عدس قد رأس وقادَ تميمًا ، (وهو أحدُ الجرارين) ، نحوًا من أربعين سنة أو أكثر إلى أن أسنَّ ومات قبل يوم أوارة الثانى ، فهذه نحو من تسعين سنة . وأبوه « عُدُس بن زيد » قد سادَ من قبله ورأس نحوًا من أربعين سنة . فهذه مئة وعشرون إلى مئة وخمسين سنة ، على الأكثر . فإذا كان امرؤ القيس قد ذكر « عدس بن زيد » فى شعره ، فهذا دليلٌ على حداثة الشعر . ولِمَ كان ذلك ؟ لأن أبا عثمان قد زَعَم أنّ « أوّل من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه » هو امرؤ القيس الكندى وخالهُ مهلهل بن ربيعة التغلبىّ ، وما دام هذا صحيحًا عند أبى عثمان ، فإنه يستظهر بغاية الاستظهار ، هكذا يقول ، فيضيف خمسين سنة أخرى لما عَسَى أنْ يكون صحيحًا من قولهم إنّ امرأ القيس كانَ يتَّكئ فى بعض شعره على من سبقه كابن حذام الطائى وأبى دؤادٍ الإِيادى ، فهذه مئتا عام بغاية الاستظهار . وإذن فالشعر « حديث الميلاد صغير السنّ » . هذا هو أسلوب أبى عثمان فى الاستدلال على حداثة « الشعر » عند العرب .

وهذا الأسلوب من النظر فى تقدير عمر الشعر العربى ، أسلوب حسابىٌّ بَحْتٌ . والحساب وحدهُ لا يكادُ يغنى شيئًا فى ميلاد الشعر وحداثة سنّه . لم ينظُرْ أبو عثمان ، أو لم يبال أن ينظر ، فى شعر امرىء القيس نفسه ، كيف جاء موزونًا مقفًّى على ضروب مختلفة من الأوزان والقوافى معروفة عنده فى شعر مهلهل وابن أخته الذى ورث عنه الشعر . ولم يبال أن يأمر نفسه أن تنظر ، كما أمرنا أن ننظُر فى موت زرارة ، كيف تسنَّى لمهلهل وابن أخته أن يستحدثا هذا القدر فى البحور المختلفة الأوزان والقوافى ؟ ولا كيف يمكن أن يقع لهما هذا القدرُ من الابتداع جملةً على غير مثالٍ سابق؟ وأسئلة أخرى كثيرة جدًّا . والذى لا أشكُّ فيه ، لطول معرفتى بأبى عثمان ، هو أنه فرح فرحًا شديدًا غامرًا بأسلوبه الحسابىّ فى الاستدلال على ميلاد الشعر ، فأغفله الفرح الغامرُ عن مذهبه فى النظر والفحص والتساؤل ، وتقليب كل قضية على وجه بعد وجهٍ ، معترضًا ، آخذًا تاركًا ، دافعًا مثبتًا حتى يفرُغ . وهو مذهبه الذى برع فيه ، كما

هو معلومٌ مألوفٌ فى كتبه ورسائله ، وفى احتجاجه لآرائه التى تولّى نُصْرتها ، وأقواله التى استحدث بها مذهبه فى الاعتزال .

وهذا الأسلوب الحسابىّ لا يغنى ولا ينفع إلّا فى أمر واحدٍ لا غيرُ ، هو تحديد عُمْر ما بلغنا من شعر مهلهل وابن أخته امرىء القيس ، لا أكثر . وكُلّ تجاوز لهذا القدر ، تهجُّم على غيبٍ بلا دليل هادٍ ، وهو أيضًا خطأ فاحشٌ فى نَقْله نتيجة الحسابِ من موضعٍ هو به لائق ، إلى موضع آخر يباينُه كُلَّ المباينة ، وليس ينفع أبا عثمانَ أن يتّكىءَ فى نقله على دعوَى يدّعيها هُوَ لامرىء القيس أو لخاله مهلهل ، زاعمًا أنه أوّل من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه . وذلك لأن هذه الدعوى فى أولية امرىء القيس أو غيره ، هى قبل كُلّ شىءٍ محتاجة فى إثباتها إلى دليل مُقْنِع ، غير مجرّد الادعاء الذى لا برهان عليه أنّ : « كتب أرسطاطاليس ، ومعلّمه أفلاطون ، ثم بطليموس وديمقريطس وفلان وفلان ، قبل بدءِ الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب » ، كما قال ، والدعْوى لا تقرَّر بدَعْوَى مثلها تفتقر هى نفسها إلى بُرهانٍ يُجَلّيها ويثبّتُها . وكلتاهما تحتاجُ إلى دليل غير الدليل الحسابىّ المعتمِد على زمن الميلاد وزمن الوفاة . وإذن ، فقول الجاحظ : « إن الشعر حديث الميلاد صغير السن » ، قضيّة باطلةٌ ، لا برهان عليها ، وليس لها دليلٌ ، وهى مقالة لا أصل لَهَا . وليس يبقى فى أيدينا من استظهاره الذى استظهرهُ إلا أمرٌ واحدٌ ، هو أن امرأ القيس وخالهُ المهلهل من أقدم شعراء الجاهلية الذين انتهى إلينا شعرهم ، فإذا كان ذلك فإن أكثر الذى انتهى إلينا من سائر قديم شعراء الجاهلية ، لا يكادُ يتجاوز عمرهُ مئتى عامٍ . وهذا يوشكُ أن يكونَ حقًّا لا ريب فيه ، ولكن يحسُنُ أن نقيِّد هذه القضية بقيدٍ لابُدَّ منه ، احترازًا من التعميم الغامض ، هو أننا نعنى القصائد الطوال المقصَّدة ، دون ما نسمّيه المقطَّعات ، أو الأبيات ذواتِ العدد التى بلغتنا من قديم شعر الجاهلية .

وقد كنتُ شديدِ العَجَب من أمر أبى عثمان ، أتعجَّبُ من أينَ أَتى بهذه الدَّعوى التى بنى عليها استظهاره ، أنّ امرأ القيس هو أوّل من نَهَج سبيلَ الشعر

وسهَّلَ طرِيقه؟ وكان بدا لى قديمًا أنّ أبا عثمان قد أخذ هذا من الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده (رقم:٧١٢٧)، عن هشيم، حدثنا أبو الجُهَيم الواسطىّ، عن الزُّهرىّ، عن أبى سَلَمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس صاحبُ لِوَاءِ الشعراءِ إلى النَّار».

وهذا الخبر نفسه رواه البخارى فى الكنى قال: «قال مسدّد، حدثنا هشيم، حدثنا شيخ يكنى أبا جهم، عن الزهرىّ، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: «صاحب لواء الشعراء إلى النار، امرؤ القيس، لأنّه أوّل من أحْكم الشّعر». وأبو الجهم هذا قال فيه ابن عدى «شيخٌ مجهولٌ، لا يعرف له اسمٌ، وخبره منكر، ولا أعرفُ له غيره»، وقد أفاض أخى السيد أحمد محمد شاكر رحمه الله فى شرح إسناد هذا الخبر، وذكر إجماع علماء الجرح والتعديل على أن أبا الجهم معروف برواية هذا الخبر، وأنه خبر واهٍ ضعيفٌ جدًّا، وذكر أيضًا ما يدورُ فى كتب الأدب من حديث ينسبُ إلى رسول الله ﷺ أنه ذكر امرأ القيس فقال: «ذاك رجُل مذكورٌ فى الدنيا شريفٌ فيها. منسيٌّ فى الآخرة خاملٌ فيها، يجىء يوم القيامة معه لواءُ الشعراء إلى النار»، ووجد أخى إسناده فى تاريخ ابن عساكر عن ابن الكلبىّ، ورواه الطبرانى فى الكبير «من طريق مسعد بن فروة بن عفيف عن أبيه عن جدّه» قال: «ولم أجد من ترجم هؤلاء. وهذا إسنادٌ مظلم، لا تقوم به حجة، بل لا تقوم له قائمة. وإنما هى كُلُّها روايات ضعافٌ متهافتة، يضعّفُ بعضُها بعضًا». وكنت أعذِرُ الجاحظ، لأنه لا علمَ له بالحديث، وأتعجّبُ له أَنْ يَزْوَرَّ فى كتبه عن الأحاديث الصحاحِ الراسخة فى الصحة، ثم يعتمدَ فى هذا الأمر على خبرٍ هالكٍ متهافتٍ لا تنهض به حجة! وكنت أظنُّ أو أرجِّح أنّه ترجم ما جاءَ فى هذا الكلام: أن امرأ القيس هو «أوّل من أحكم الشعرَ»، فقال: «هو أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه»، والتشابُه بين سياق القولين ظاهرٌ بَيِّنٌ، وهذا جائزٌ جدًّا، لأنّ أبا عثمان ذكر فى كتبه كالبيان والحيوان وغيرهما أحاديث من أحاديث هشيم بن بشير الواسطى الإمام الثقة (١٠٤– ١٨٣)، وروى كثيرا من الأخبار من

كتب ابن الكلبى ، هشام بن محمد بن السائب (٠٠٠ - ٢٠٤) ، فهو خليق أن يكون رأى هذين الخبرين ، فأخذ منهما ما أخذ ، وصاغ هذه القضية وألقاها إلقاءَ الواثق بصحتها ، وهى فى الحقيقة دَعْوَى لا نسبَ لها إلَّا فى ألفاظ خبرين واهيين ، من رواة مجاهيلَ كَذَبة مُغْرِقين فى الكذب .

ازددت على الأيام ثقةً بأنّ مقالة أبى عثمان فى « كتاب الحيوان » ، دعوى مشتقة من ألفاظ هذين الخبرين العليلين الهالكين ، مع التباين الشديد فى حقيقة المعنى ، لم يَسْبِقْهُ إليها أحدٌ من نقّاد الشعر وحفظته . بيد أنّ وجه الرأى تغيَّرَ عندى فيما بعدُ . أيكون أبو عثمان وحده هو الذى نظر فى قضية « الشعر الجاهلى » وأوّليته وقِدَمه ؟ لا ، بل نظر فيها رجُلٌ من معاصريه هو أقومُ منه على الشعر عامةً ، وعلى الشعر الجاهلىّ خاصةً .وهو أشدُّ تحقُّقًا بدراسته ، وأبلغ نفاذًا وتثبُّتًا فى روايته وفَحْصِه . لا ، بل من الخطأ أن يُقَايَس بينهما ، لاختلاف طريقيهما فى النظر والرواية اختلافًا مُبِينًا . وهذا الرجل هو أبو عبد الله محمد ابن سلام الجُمَحىّ ، صاحب كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، (المولود سنة ١٣٩ ، والمتوفى سنة ٢٣١) ، فهو كما ترى معاصرٌ لأبى عثمان الجاحظ (المولود سنة ١٥٠ ، والمتوفى سنة ٢٥٥) . ولولا أنِّى شُغلت بكتاب ابن سلامٍ ، وأجمعتُ العزم على شرحه وتحريره ، لكنت خليقًا أن أقف حيث كنت من رأيى فى دعوى أبى عثمان ، لا أزيدُ عليه شيئًا يذكر .

ويحسن بى هنا . أن أقصَّ القصة فى خلال مراجعتى نصَّ كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وتتبُّعى ما نقلَه العلماء من كتابه إلى كُتُبهم ، وجدت الجاحظ قد نقل فى مواضع من كتاب « الحيوان » خاصة ، عن ابن سلّامٍ أقوالًا وأخبارًا هى بنصِّها موجودةٌ فى نسختى من « طبقات فحول الشعراء » ، فثبت عندى أن الجاحظ قد اطَّلعَ على نسخةٍ من كتاب ابن سلامٍ ، فنقل منها . والدليل على ذلك أن أبا عثمان ، كما ذكر الأستاذ عبد السلام هارون فى مقدمة « كتاب الحيوان » ومقدمة « كتاب البيان والتبيين » ، قد أقعده الفالج قبيل مقتل ابن الزيات فى سنة ٢٣٣ ، وأنّه ألف الكتابين فى آخر حياته . وقد أوشك الدكتور طه الحاجرى أن

يقطع بوقت تأليف « كتاب الحيوان » فى مقدمة كتاب البخلاء فقال : « أما كتاب الحيوان فنستطيع القطعَ فى طمأنينة علمية بأنه كتبه فى أواخر حياته ، بعد مقتل المتوكلّ سنة ٢٤٧» . وقد استظهرت أنا أيضًا أنه ألف كتابا ثالثا هو « كتاب البرصان والعرجان » فى تلك العلّة ، ألفه مع الحيوان ، وقبل كتاب البيان ، لأنه ذكر فيه الأحنف بن قيس ، وذكر شيئًا من أقواله ثم قال ص ٢٠٧ : « وسنذكُر فقرًا من كلامه فى كتاب البيان والتبيان[1] ، إن شاء الله ، وبالله التوفيق ».

وإذا كان « كتاب الحيوان » ، الذى ألفه أبو عثمان فى آخر حياته ، يدلُّ على أنه اطَّلَع على كتاب ابن سلام ونقلَ منه ، فإن كتاب « البرصان والعرجان » يدلُّ دلالة قاطعةً أخرى على ذلك . فإن أبا عثمان ، بعد أن فرغ من ذكر البرصان ، واستفتح القول فى العرجان ص : ١١٠، قال فى تقدمة الباب : « وسنذكُر شأن العرجان وأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأقدارهم بمثل ذلك من الأشعار الصحيحة والأسانيد المرضية » ، وقد وفَى بما قال فى شأن من ذكرهُمْ إلّا رجلًا واحدًا لم يذكر عنه خبرًا ولا صفةً ولا بيانًا من بين جميع من عدّدهم وحَلَّاهم من العرجان ، من ص ١١٠، إلى ص ٢٧٠، بل أسقطه إسقاطًا فى خلال العرجان وأخبارهم ، فقال فى ص : ١٢٨ « ومن العرجان : أبان بن عثمان البجليّ الأعرج ، وكان صاحب أخبار ، وقد أكثر عنه محمد بن سلام الجُمَحِى » ، ولم يزد على ذلك شيئًا من خبر أو غيره . والذى ذكرهُ من إكثار محمد بن سلام عنه فى الرواية بيّنٌ فى كتاب الطبقات . فأنا أرجّح أنه استفاد أنه « أعرج » من كتاب ابن سلام فضمَّهُ إلى عرجانه ، لأنّ ابن سلام وصفه بالأعرج فى موضعين من كتاب الطبقات (ص : ٢٥٣، ٤٨٢) ، إذ كان أبو عثمان حديث عهد بكتاب ابن سلامٍ ، وكان أمر العرجان يشغلُه ، فأخَذه وضمّه ، ولكنّه نسى أن يضيف إلى نسبته « البجلى »

---

(١) هكذا جاء فى كتاب البرصان والعرجان ص ٣٢٩، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، وقال فى حاشيته « هذه التسمية لم أجدها فى غير هذا الموضوع ، والمعروف : التبيين » و« التَّبيُّن » .(محمود الطناحى) .

« الكوفىّ » ، لأن ابن سلام لم ينسبه كذلك إلا فى موضع واحد من كتابه (ص : ٣٧٥) ، وكوفيته لا تشغل أبا عثمان ، إنما يشغله عرجه وهو يؤلف فى العرجان . فهذا كما ترى قاطع الدلالة على أن الجاحظ قبل أن يؤلف « كتاب الحيوان » « وكتاب البرصان والعرجان » وقع إليه كتاب الجحمىّ بأَخَرَةٍ عند تأليفه ، فقرأهُ ونقل منه ما نقل . وظنّى أن أبا عثمان ، كان قد سمع بكتاب الطبقات بعد وفاة ابن سلام ، ممن كان يختلف إليه من أصحابه وتلامذته ، لأن ابن سلام لم يقرأ كتابه على أحد فى حياته ، فلما مات بقيتْ كتبه عند أهله ، فأرسل أبو عثمان إلى بعض أهله ، فاستعار الكتاب أيّاما ، فقرأه على عَجل ثم ردّه ، ثم نقلت كتبه بعد ذلك من بغداد إلى البصرة ، إلى ابن أخته أبى خليفة الفضل بن الحباب الجمحى ، ولم يقرأه أبو خليفة على الناس إلا بعد دهرٍ طويل من وفاة ابن سلام .

ولمّا كان محمد بن سلام قد صدّر كتابه فى « طبقات فحول الشعراء » ، برسالة فى الشعر القديم وفى رواة هذا الشعر ، ساقَه النظر إلى ذكر الشعر فقال : « إنّ أوائل العرب لم يكنْ لهم من الشِّعر إلّا الأبيات يقولُها الرجل فى حاجته ، وإنّما قُصِّدت القصائد وطُوِّلَ الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد منافٍ (ص : ٢٦) ، وأن « أول من قَصَّدَ القَصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبىّ » (ص : ٣٩) ، ثم قال : « كان امرؤ القيس بن حُجْر بعد مهلهل ، ومهلهلٌ خاله ، وطرفةُ ، وعَبِيد ، وعمرو بن قميئة ، والمتلمس فى عصر واحدٍ » (ص : ٤١) ، وأن امرأ القيس « سبق العربَ إلى أشياء ابتدعَها ، واستحسنتها العربُ ، واتبعتْه فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتّبكَاءُ فى الديار ، ورقّةُ النسيب ، وقُرب المأخذ وشبَّه النساء بالظباء والبَيض ، وشبَّه الخيل بالعِقْبَان والعصىّ ، وقيّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيبِ وبين المعنَى » (ص: ٥٥) – ولمّا قرأ أبو عثمان مقالةَ ابنِ سلامٍ فى أوّل كتابِه ، أعجبتْهُ ، وهزّتْه ، وذكّرته بالخبر الهالك الذى جاء فيه أنّ امرأَ القيس « صاحبُ لِوَاءِ الشعراء إلى النار ، وأنه أوّل من أحكم الشعر » ، بَدَا لَهُ أن يصوغَ من ذلك كُلِّه قضيَّة ، يزيد فيها على ابن سلامٍ ، فاجتهد فصاغ قضيته الأولى : « أوّل من نهج سبيل الشعر وسهَّل الطريق إليه ، امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة » ، وأعجبه

ما صاغ إِعجابًا مفرطًا ، فإنّه ابتدعَ ما لمْ يُسْبَق إليه ، ولم يُبال بهذا الفرق الظاهر بين قوله هو : « أول من نهجَ سبيل الشعر » ، وقولِ ابن سلام : « أوّل من قصَّد القصائد » ، وقول الخبر الهالك أيضًا : « أول من أحكم الشعر » . فإن ألفاظ الخبرين جميعًا لا تتناولُ الحكم على أوليّة الشِّعر نفسه ، بل هى مقصورة على أوليّة تقصيد القصائد وذكر الوقائع فيها ، أو على أوليّة إحكام الشعر ، وأنّ مهلهلًا وامرأ القيس كانَ لكُلٍّ منهما الفضل الأوّل فى ذلك . بيْد أن أبا عثمان لم يبال طرفةَ عَيْنٍ أن ينقلَ هذه الأوّلية من معنًى خاصٍ محدود ، هو تقصيد القصائد وتطويلها ، إلى معنًى عامٍ مُطْلَقٍ جامعٍ هو « الشعر » نفسه . واستحوذ على أبى عثمان إعجابُه بنفسه ، وثقته بحسن رأيه ونظره ، أن يزدادَ سبقًا فى الاستخراج والاستنباط ، فزاغ زيغة منكرة مُفْرطة الغرابة ، فأعاد صياغة القضيّة صياغةً جديدة يُلقيها مُسَلَّمة لا تحتاج إلى برهان فقال : « أما الشعر فحديث الميلاد صغير السنّ ، أوّل من نهج سبيله ، وسهّل الطرِيق إليه : امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة » .

وصَدْرُ هذه القضية مشتقٌ من قول ابن سلام : « وإنما قصّدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف » ، لقرب عهدهما من مولد رسول الله ﷺ فهو « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف » . والأمرُ بَيِّنٌ جدًّا كما ترى !!

ولم يقنع أبو عثمان بهذا ، بل أَرادَ أن يَدْعَم هذه القضية بدليل مبتدع آخر لم يسبق إليه . فسوّل له إعجابه بنفسه وبرأيه ، وبالقضية التى بهرته صياغتُها حين صاغها ، فزاغ زيغةً أخرى أشدَّ جورًا ، فابتغى أن يحدِّد ميلاد الشعر تحديدًا لا يُختَلَفُ عليه ، فطلب من شعر امرىء القيس الذى كان عنده أوّل من نهج سبيل الشعر كما زعم ، دليلًا أشدّ ظهورًا وتحديدًا ، وأوثَقَ حجّة من قول ابن سلام فى شأن أولية تقصيد القصائد على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فأسعفه شعر امرىء القيس بأبيات فيها ذكر « حميرى بن رياح بن يربوع ابن حنظلة » و« عُدُس بن زيد بن عبد الله بن مالك بن حنظلة » ، « وعدس » ،

هو رأس بنى تميم فى زمانه، وابنه زرارة بن عدس، رأس تميما أيضًا، وهو مشهور لا يخفى ذكره، لاقتران اسمه بأشنع يوم مذكور فى بنى تميم، يوم أن حرّق عمرو بن هند مئة من تميم فى يوم أوارة الثانى، وهو مشهورٌ أيضًا معروفٌ قُرْبُ تاريخ حدوثه من تاريخ مولد رسول الله ﷺ. وإذن، فما أيسَر الأمر وما أبينه ! وإذنْ، فقد أوفَى أبو عثمان على الغاية، وسَبقَ، فحقَّ له أن يختم ما استخرجتْه براعتُه فيقول مُدِلًّا متبخْترًا: «فانظرْكم كان عُمْر زرارة، وكم كان بين موت زُرارة ومولد النبيّ عليه الصلاة والسلام، فإذا استظهرنا الشِّعْرَ، وجدنا إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار، فمئتى عام». وانتقالُ أبى عثمان من الاستدلال بالشعر الذى فيه ذكرُ «عُدُس»، دون أن يذكر أنه يعنيه أو يريده، ثم إلقاؤه اسم «زرارة» غُفْلًا بعقب ذلك مباشرة دون أن يشير إلى أنَّه «زرارة بن عُدُس»، واطِّراحهُ ذكر «يوم أوارة الثانى» الذى جاء عقب موت «زرارة»، وإغضاؤه عن الاحتجاج لتاريخ ذلك اليوم متى كان؟. أقول هذا الانتقال المفاجىء، وسِياق عبارته فى الأمر والاستفهام وتفويض الأمر كله إلى سامعه أوقارئه غايةٌ فى الإدلال والتشامخ ليس بعدها غاية! وما حاجة أبى عثمان إلى تفسير هذا الاستدلال الحسابىّ، إذا كان الأمرُ أوضح مِنْ أن يفتقر إلى بيان ؟!! وقد بيناه نحن آنفًا إكرامًا لأبى عثمان!

وقد ظنَّ أبو عثمان ما ظنَّ فى لُطفِ ما سبق إليه، وفى براعة ما ابتدعه. واحتملته خيلاؤه التى لا تفارقُه فَقَيَّدَه فى أوّل «كتاب الحيوان»، وكان حديث عهدٍ بقراءة كتاب ابن سلام، ليكون عند نفسه وعند الناس قد أربى على الجمحىّ، وافترعَ قولًا هو أحسن من قوله وأوثق، وأنه أتى على ما أبهمه ابن سلام فأضاءه ونفى عنه الظلام. بيد أن الحقَّ دامغٌ، يغسِلُ تهاويلَ الزينة الظاهرة عن وجه كُلِّ قضية باطنُها باطِلٌ. وقضية أبى عثمان فى أولية الشعر، هى كما رأيتَ، دعوى باطلة مركّبة على دَعْوى باطلةٍ أخرى لا أصل لَها، وكلتاهما لا حجَّةَ عليها يجب التسليمُ لها من نصٍّ أو نظرٍ. لقد بطلت قضيتُه وتكشفت

عنها زينتها ، وعادت عجوزًا غير ذات خليلٍ ، كما يقول امرؤ القيس [١] .

شَمْطاءَ جَزَّتْ رأْسَهَا وتنكَّرَتْ مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ

فالعجبُ كلّ العجب بعد ذلك ، لمن يعتمد قول الجاحظ فى أوليّة الشعر وعمره ، وحداثة ميلاده وصغر سنّه ! ولم يبق فى أيدينا مما يعتمد عليه ، إلّا الذى لم يختلفْ عليه أحدٌ ، وهو أنّ من أقدمِ ما وصلَنا من شعر الجاهلية ، شعر مهلهل وامرىء القيس وأقرانهما ، فإن شئت ألا تفجع أبا عثمان في قضيته وحسابه فزد على ذلك أن الذي بين الرجلين الشاعرين وأقرانهما وبين مجيء الله بالإسلام ، يتراوح ما بين مئة وخمسين سنة ، إلى مئتى سنة . هذا غاية ما يمكن التسليم بصحته ، لا أكثر ولا أقل . ومع ذلك فالأمر على هذا الوجه ليس يقينًا جامعًا ، ولا حقًّا قاطعًا .

وإذنْ ، فقد صارَ قولُ الجاحظِ الآن لا يعنينا فى شيء ، والذى ينبغى أن يعنينا هو ما قاله ابن سلّام فى رسالة كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، فالرجل أشدُّ من أبى عثمان تحرِّيًا وضبطًا ، وأبلغُ منه تحقّقًا وتَثَبُّتًا فى رواية الشعر ونقده ، وهو بلا ريب أعلمُ به منه وأخبر . فمن الحسَن إذنْ أن نُقبل بوجوهنا عليه ، وأن نحاول أيضًا تحليل أقواله تحليلًا متأنيًا ، يَقِفُنَا على أوَّل مَدْرجَة الصواب ، ويَجُوزُ بنا طريق الشَّك إلى قرارة الحقِّ واليقين ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله المخرِجنا من ظلمات الحيرة والضلال إلى نورِ الهُدَى والطمأنينة .

وقبل كُلِّ شيء ، وقبل النظر فى مقالة أبى عبد الله محمد بن سلام الجمحى فى كتابه ، « طبقات فحول الشعراء » ، أجدهُ لزامًا لا مفرَّ منهُ ، أن أكشف عن شيء من منهجى فى قراءة كتب القدماء من علمائنا رحمهم الله . فقد غَبَر علىَّ زمانٌ طويل فى مدارسة كتبهم ، على اختلاف موضوعاتها ،

---

(١) هكذا جاءت النسبة فى الأصل . وهو الأخير من ثلاثة أبيات مختلف فى نسبتها بين عمرو ابن معدى كرب وامرئ القيس . وانظر تفصيل الخلاف وتخريج الأبيات فى ديوان عمرو بن معدى كرب (مطاوع الطرابيشى) ص ١٤٢ (فهر)

واختلاف أزمنة مؤلفيها ، ولقيتُ العنت وما فوق العَنَتِ فى التردّد ما بين الخطأ والصواب فى فهم بعضِ ما يقولون ، فأسلمنى ذلك إلى حالةٍ من الشك تأخذُ بأكْظامى ، وأنا أقرأ بعض كلامِهم ، حتى ما أطيق أن أتنفس ، وأظلُّ حائرًا متهَيِّبًا أن أقول برأيٍ قاطع فى فهم ما أقرأ ، وتغلبنِى غمرة طاغيةٌ من قلّة الثقة بفهمى وبمعرفتى . ورُبَّ حرفٍ واحدٍ فى كلامِهم ينقُلنى من موقف الواثِق ، إلى موقف مناقِضٍ ينفى هذه الثقة ، ثم يأتى بعده حرف آخر يحملُنى من موقفى هذا ، فيطرحنى مرةً أخرى إلى الموقف الأول فى الثقة والاطمئنان ، وهكذا دواليك حتى أضيقَ بما أنا فيه . فمن أجْل ذلك ألجأ دائمًا إلى إعادة النظر مرةً بعد مرَّةٍ ، وأحاوِلُ أن أستوعبَ فى كُلِّ مرةٍ قدرًا من الشكوك وقدرًا من اليقين ، وأعرضُ هذا على الكلامِ كُلِّه شيئًا بعد شيء ، حتَّى أزيل التخالف الداعى إلى الشَّكِّ ما استطعت . ومعنى ذلك : أن ألجأ إلى تحليل الألفاظ ثم الجُمَلِ تحليلًا دقيقًا ، فى خلال النصْ كُلِّه طال أو قَصُر ، ثم أعيدُ تركيبَه بعد أن يَزولَ كُلُّ غموضٍ يكتنف الألفاظ ، وكُلُّ تشقُّقٍ يسرى فى الجُمَل ، وكُلُّ انتشارٍ يُبعْثر مقاصدَ كاتبه على أنظارنا نحنُ المحدَثين من أهل العربية . وهذا أمرٌ يطول الحديث عنه ، ولا يظهر ظهورًا جليًا إلّا بمثلٍ مضروب يدلُّ عليه ، وقد كانَ ذلك فى بعض ما كتبتُ قديمًا ، وكانَ منذ قليلٍ فى تحليلى لكلام أبى عثمان الجاحظ على وجه من وجوه هذا المنهج ، وسيكونُ شيءٌ منه بعد قليل فى تحليل كلام ابن سلامٍ فى رسالة كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وحتى عنوانُ هذا الكتاب نفسه لم يسلم عندى من الشك والتحليل .

وذلك أنى منذ عهد قديمٍ ، وقفت حائرًا متلدّدًا فى ضبط معنًى بعضِ ألفاظٍ تدور بيننا اليومَ قريبة واضحةَ المعنى ، ثم لا نجد فى أنفُسِنا سببًا يحملنا على إعادة النظر فى حقيقة معناها ، ثم عند التوقُّف والشك ، ومع الأناة والتردادِ ، ظهر لى أنَّ بعضها فى كلام ابن سلامٍ عند تحليله ، أصبح محفوفًا بمعانٍ غير

المعانى التى أَلِفتُها وأَلِفها العلماء والأدباء فى زماننا وقبل زماننا ، لم يُسَاورهم ولم يُسَاورنى أنا أيضا من قبلُ شك فى معناهَا الواضح المألوفِ عندنا . فلما توقفتُ فيها فيما بعدُ لأسباب كثيرة ، لم يكن ذلك عندى مستغربًا ، لأن بعض الألفاظ التى استحدثها قدماء علمائنا من أهل العلم ، فى كُلِّ فنٍّ منه ، لم تكن يومئذٍ قد استقرَّت معانيها على الوجه الذى انتهى إلينا وألفناه نحنُ فى كتب مَنْ بعدهم من العلماء والأدباء . وهذا أمرٌ معروف مقرّر بلا ريب فيه ، ولكنّ الإِلفَ يغطِّى عليه ويُنسِيناه . فمن ذلك ، مثلًا ، فى كتاب ابن سلامٍ لفظ « طبقة » ، استعمله صاحبنا فى ثنايا كتابه ، ثم جعل جمعه « طبقاتٍ » عنوانًا لكتابه . وهذا اللفظ مألوفٌ معروف عندنا وعند من سبقنا من العلماء ، وسمَّوا كثيرا من كتبهم به ، فقالوا : « طبقات الفقهاء » ، « وطبقات الأدباء » و« طبقات الأطباء » ، و« طبقات الشافعية » و« طبقات اللغويين والنحاة » و« طبقات الأمم » ، و« طبقات الصوفية » ، وعشراتٌ من الكتب تحمل لفظ « طبقات » ، وهو فى جميعها مفهومٌ واضح . ولمّا تعرَّضَ المحدَثون من علمائنا لكتاب ابن سلامٍ ، حملوا معنى « الطبقة » و « الطبقات » عنده على ما ألفوه ، فقالوا بتفضيل الطبقة الأولى من فحول الجاهلية على الطبقة الثانية منهم ، وهكذا ، لأنّه ظاهر أنّه لم يقسِّم هؤلاء الشعراء على وَفق الزمن وتاريخ المولد والوفاة ، فلم يبق فى أيديهم إلّا معنى واحدٌ من معانى « الطبقة » ، وهو تفضيل طبقة على طبقة ، وهو معنى لا يريده ابن سلامٍ ، وليس فى كتابه شىء يدلّ عليهِ ، بل فيه ما يدلُّ على أنه لاَ يريد هذا التفضيل البتة . وقد بينتُ فى مقدمة الطبعة الثانية من نسختى من « طبقات فحول الشعراء » (ص ٢٤، ٢٥) ما أنا فيه من التردّد فى فهم هذا اللفظ ، ثم عدت فى المقدمة نفسها ، فحلّلت هذا اللفظ ، وحاولت تتبُّع تاريخه ، وانتهيت إلى ما أظنُّ أنّه حقيقة ما يعنيه ابن سلام بهذا اللفظ ، وذلك فى المقدمة من ص ٦٥، إلى ص ٦٩، ثم قلت فى ختام ذلك : « وسيبقى أمر كتاب « طبقات فحول الشعراء » بعد ذلك ، محتاجًا إلى دراسة وتفصيل وتَتَبُّع ، وإلى تفلية لأصول ابن سلامٍ فى النظر ، ولأسسه التى بنى عليها نقده فى الشعر ،

وهو خليق بأن تبذلَ فى دراسته الأعوام ، لأنه أقدم كتابٍ وصل إلينَا من كتب قُدماء نقاد الأدب والشعر ، بل لعلّه طليعة كتب النقد فى الأدب العربىّ . وهو حقيق بهذه المنزلة من التقديم والجلال » . وهذا كافٍ إن شاء الله ، فى الدلالة على بعض منهجى فى تحليل هذه الرسالة الجليلة التى استفتح بها أبو عبد الله ابن سلام الجمحى ، كتابه « طبقات فحول الشعراء » .

أمّا رسالة كتاب « طبقات فحولِ الشعراء » ، وهى مقدمته التى استغرقت نحو خمسين صفحةً من طبعتى الثانية لكتابه ص(٣- ٥٠) . والتى قسمتها أنا إلى خمس وخمسين فِقْرة ، أولاهنَّ إسناد الكتاب ، فلى فى جملتها وسياقها حديث قصير ، لابُدَّ منه ، حتى يكون ما أقوله واضحًا ، وليكون ما نتولاهُ من تحليل مقالة ابن سلام فى صدر كتابه واضحًا أيضًا ، ومُيَسَّرًا سبيلَ من يريد أن يتعقّب كلامِى ، وهو ينظر فى الأصل ، وهو الكتاب المطبوع . والذى يوجب ذلك أن القدماء من علمائنا كانوا لا يجدون فى الاستطرادِ حَرَجًا على أنفسهم ولا على سامعيهم أو قارئيهم ، وكانوا لا يرون به بأسًا ؛ لأنه يعينُ على بَذْلِ علم أو معرفة نافعة فى جانب من جوانب الموضوع الذي يتحدثون فيه . حتى يبلُغوا مِنْ ذلك أن تجد أداةَ الشرط فى أوّل الحديث ، ثم تنقضى عدة صفحاتٍ طوالٍ جدًّا حتى تقف على جواب الشرط . تجد هذا عند الشافعى والطبرىّ وغيرهما من أهل العلم ، رضى الله عنهم . ولهذا من فعلهم أسبابٌ كثيرة ، ليس هذا موضع بيانها . وسترى مصداق ذلك فى رسالة كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، كما أصفها الآن :

بدأ ابن سلام عرض كتابه وسبب تأليفه فى الفقرة الثانية (ص ٣ من المطبوع) فقال :

« ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيَّامها ، إذ كان لا يُحَاط بشعرِ قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانُها وساداتُها وأيّامُها . فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهلهُ عالمٌ ، ولا يستغنى عن علمه ناظرٌ فى أمر العرب ، فبدأنا بالشعر ».....

وواضحٌ أنّه أراد هنا أن يبيّـن منهجه فى تأليف الكتاب ، وأنه سيذكر بعقب ذلك تتمَّةَ عرضه لعمله فى التأليف ، ولكنه قطع هذا العرض فجأة ، ولم يَعدْ إلى وصلِ الحديث عنه إلا فى الفقرة الحادية والثلاثين (ص : ٢٣) فقال متمِّمًا ما بدأ به : « ففصَّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام ، والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزَّلناهم منازلهم ، واحتججنا لكُلّ شاعرٍ بما وجدنا له من حُجَّةٍ ، وما قال فيه العلماء ...» ، ثم استطردَ بعد ذلك فى حديث متصل عن هذا الشعر منذ انتهى من هذه الفقرة الحادية والثلاثين ، ثم عاد فى الفقرة الخامسة والخمسين (ص:٤٩) فقال متمما عرض كتابه أيضًا فقال : « ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم ، إلى رهطٍ أربعة ، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة ...» وختم بتمام هذه الفقرة رسالة كتابه أو مقدمته . وفى خلال ذلك بعض الاستطراد وهو لا يعنينا هنا . هذا هو السياق الأَوّل فى مقدمة كتابه .

ثم يأتى سياقٌ ثان معترض يبدأ من الفقرة الثالثة (ص: ٤) ، وينتهى عند آخر الفقرة الثالثة عشرة (ص : ١١) يبدأه بقوله : « وفى الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ...» ، يتعرَّض فيه لبيان رأيه فى هذا الموضوع، ويكشف عن حقيقة بطلانه.

ثم يبدأ سياقًا ثالثًا يذكر فيه علماء العربية ، منذ الفقرة الرابعة عشرة (ص : ١٢) إلى أن ينتهى بالفقرة الثلاثين (ص: ٢٣) ، بادئًا بذكر أبى الأسود الدؤلى ، ويحيى بن يعمر العدوانى ، وقتادة ، وإسحق بن سويد ، وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم الليثى ، وعبد الله بن أبى إسحق الحضرمىّ ، وعيسى بن عمر ، وأبى عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، ومسلمة بن عبد الله الفهرى ، وحماد بن الزبرقان ، ثم الخليل بن أحمد الفراهيدى ، ثم أبى محرز خلف بن حيان ، وهو خلف الأحمر ، ثم الأصمعىّ ، وأبى عبيدة ، وكلهم من أهل البصرة ، ثم يختم هذا السياق ، فيقول : « وأعلم من وردَ علينا من غير أهل البصرة المفضّل بن محمد الضبى الكوفىّ » .

وإذن فترتيب سياق المقدمة جملة هو هكذا :

السياق الأول : ١، ٢، ثم ٣١ إلى ٥٥ . السياق الثاني : من ٣، إلى ١٣. السياق الثالث : من ١٤، إلى ٣٠. ووضوح هذه السيَاقات الثلاثة المتداخلة والفصل بينها واجبٌ ومهمٌّ جدًّا لمن يريد أن يفهم ما يريدُ ابن سلام بكلامه ، وهو أشدُّ وجوبًا لمن يحلّل ألفاظه وجُمَلهُ بغْية الوقوف عَلَى مقاصده ، بلا خَلْطٍ بين كلامين مفترقين متباينين . وبَيِّنٌ جدًّا أن ابن سلام قد قطع تمام كلامه فى الفقرة الثانية التى يعرض فيها نهج كتابه ، والتى وصلها بعد ذلك بزمان فى الفقرة الحادية والثلاثين إلى الخامسة والخمسين ، معترضًا مستطردًا بفصلين مختلفين ، أولهما عن « المصنوع » من الفقرة الثالثة إلى آخر الثالثة عشرة . وثانيهما عن علماء العربية من الفقرة الرابعة عشرة إلى الفقرة الثلاثين (١٢: ٢٣) . وبهذه المناسبة عند ذكر هذا الفصل الثانى الطويل ، أحبّ أن أذكُر وهمًا كبيرًا وقع فيه إمامٌ جليلٌ من قدماء علمائنا أيضًا ، يدُلُّنا على وجوب التَأنّى وإعادة النظر ووضوح الفصل بين هذه الفصول التى تضمنتها رسالة كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وذلك أنّ إمامنا أبا علىّ القَالى صاحب كتاب الأمالى والنوادر (المولود سنة ٢٨٨، والمتوفى سنة ٣٥٦) وهو قريب العهد من ابن سلام ، قال فى أماليه (١: ١٥٧) : « وقال محمد بن سلام فى كتاب « طبقات العلماء » ، « كنا إذا سمعنا الشعر من أبى مُحرِزٍ (يعنى خلفًا الأحمر) لا نبالى ألَّا نسمعه من قائله » وهو الجزء المذكور فى كتاب « طبقات فحول الشعراء رقم ٢٩ من هذا الفصل الثانى ، وليس لابن سلامٍ كتابٌ بهذا الاسم ، ووهِم أبو على لأنه اعتمد على ذاكرته ، ولم يكن كتاب ابن سلام من بين الكتب التى حملها معه إلى الأندلس ، كما يدلّ على ذلك فهرست ابن خير الإِشبيلى . وقد أشرت إلى ذلك فى مقدمة الكتاب (ص: ٣٨) . وهذا الوهم ، على هَوَانه ، يحذّرنا ويوجبُ علينَا الحرص على الأناة والدقة ، مخَافة أن نقع فيما هو أجلُّ وأخطر ، وأبعدُ أثرًا فى إساءة فهم كلام أبى عبد الله بن سلام ، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لم يكد أبو عبد الله محمد بن سلام الجُمحىّ يستفتِح رسالة عرض منهج كتابه بالفقرة الثانية التى ختمها بقوله : « فبدأنا بالشعر » ، والتى نقلتها آنفًا من قريب ، حتى هجم بغتةً على إحدى قضايا « الشعر » ، وهى قضية المصنوع المفتعل منذ أوّل الفقرة الثالثة فقال :

« وفى الشعر مصنوعٌ مفتعلٌ موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجةَ فى عربية ، ولا أدبٌ يستفادُ ، ولا معنى يُستخرَج ، ولا مثلٌ يُضْربُ، ولا مديح رائعٌ، ولا هجاءٌ مُقْذِعٌ ، ولا فَخْرٌ مُعْجِبٌ ولا نسيبٌ مستطرفٌ ، وقد تداولَهُ قومٌ من كتاب إلى كتابٍ ، لم يأخذوهُ عن أهل البادية ، ولم يعرضوهُ على العلماء ، وليس لأحدٍ ، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه ، أن يقبل من صَحيفة ، ولا يَرْوِىَ عن صُحُفِىٍّ . وقد اختلفت العلماء بعدُ فى بعضِ الشعر ، كما اختلفت فى سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرجَ منه » . وهى الفقرة الثالثة كُلُّها .

وهذه عبارة واضحة جدًّا عند النظرة الأولى ، ليس فيها معنًى غامضٌ يوجب الأناة والتأمُّل ، وقد مررتُ بها مرارًا وأنا أعيد قراءة كتاب ابن سلامٍ ، فما توقفت ولا تردّدتُ . وحتى المباغتة التى ارتكبها ابنُ سلامٍ فى انتقاله وقطع حديثه عن عرض الكتاب إلى أن تبدأ الفقرة الثلاثين ، لم تختلِجْنى إلى الشَّك فى فهمى وإعادة النظر فى ألفاظها . ومضَى دهْرٌ قطعتْنى فيه عن ابن سلامٍ القواطع ، ثم أتى علىَّ يومٌ فانتبهت فيه فجأة إلى أَنَّ هذه الفقرة قد غابتْ عن الطبعة الأولى المختصرة من «كتاب الطبقات»، والتى طبعها الأعجمى يوسف هل فى مدينة ليدن سنة ١٩١٣، وعن طبعته الثانية فى القاهرة سنة ١٩٢٠، فكانَ غيابُها عن هاتين الطبعتين اللتين رجع إليهما العلماء والأدباء إلى أن طبعت نسختى التامة منه فى سنة ١٩٥٢، قد قَاد أوّل المشككين فى الشعر الجاهلىّ النافين لصحة ما روى منه ، إلى فسادٍ كثير فى الرأى . وإلى خللٍ مفزعٍ فى النظر . فلمّا حضرت هذه الفقرة نفْسها فى نسختى ، فُهِمت على غير وجهها ، ووضعت فى غير موضعها ، وصارت حُجَّةً فى معان هى فى الحقيقة حُجة

عليها لا لهَا ، ثم أفضت إلى تفسير سائر كلام ابن سلام فى رسالة كتابه تفسيرًا غير صحيح . فيا عجبا لهَا من فقرة ! كان حضورها فى نسختنا من الطبقات ضارًّا ، وكان غيابُها عن نسخة يوسف هل ضارًّا أيضًا ! وإذنْ ، فللكلامِ كما للناس أضرارٌ ، فى مشهدهم ومغيبهم !

وعلى الأيام غلا بى ارتيابى فى شأن هذه الرسالة ، ودون أن أرجع إلى نص كلام ابن سلام ، وجدتُ فى نفسى ، أو وقع فى رُوعى على الأصحّ ، أن الأمر لا يخرجُ عن أحد احتمالين : إمّا أن يكون سَقَط من أصل كلام ابن سلامٍ شىء مُهِمٌّ ، وإمّا أن أكون أنا قد أسأت فَهم ما قرأت . فعُدت أقرأ الرسالةَ كلها متمهِّلًا ، فلم أستطع أن أتبين موضعًا أقول فيه : ههنا شىء مفقودٌ ، ووجدت أيضًا أنى قد نَبَّهْتُ فى تعليقى على الكتابِ ، وبيّنت مواضع الاعتراض والاستطراد بيانًا غير مختلٍ ولا ناقص . وإذن ، فقد بطل احتمال ضياع شىء من كلام ابن سلامٍ ، ولم يبق إلّا أن تكونَ الآفة من سوءِ فهمى لكلامه ، ولم أُكذِّبْ ، فقرأت مرةً أخرَى ، ولكنى لم أظفر بالذى أبتغيه من اتِّهامِ نَفْسى وإساءتها ، فأصحِّح ما أسأت فيه ، ولكنّ القراءة ثم إعادة القراءَةِ قد أظفرتنى بشىء مهمٍّ جدًّا ، وهو أنّ مباغتة ابن سلامٍ بانتقاله من الفقرة الثانية التى بدأ فيها عرض منهجه فى كتابه ، والتى ختمها بقوله : « فبدأنا بالشعر » . قبل أن يستتم عرضه إلى فِقْرة ثالثة يتحدث فيها عن ضرب من الكلام « مصنوع مفتعل موضوع » مستطردًا متدفّقًا فى بيان خُبْث هذا الشعر وعُواره ، ثم لا يكفُّ حتى يبلغ أقصى الفقرة الثالثة عشرة – أقول : انقلبت هذه المباغتة التى ألفت أشباهها فى بعض كتب القدماء من علمائنا ، إلى طَفرة غريبة مُفرطة الغرابة ، تزدادُ غرابتُها ظهورًا وعلانيةً حين يستمرُّ فى إعراضه وازورارِه عن إتمام ما ابتدأهُ فى الفقرة الثانية ، غير مبالٍ نَقْرةً ولا فَتْلةً بما هو فاعلٌ ، لا تساورُه أدنى رغبة فى وَصْل ما انقطع من حديثه ، بل زاد تدافُعًا فى غُلَواء استطراده الأوّل باستطراد ثان يبدأ مُنْذ الفقرة الرابعة عشرة إلى أن يكفكف من تدافعه وتدفُّقه عند منقطع الفقرة الثلاثين ، ثم يكفُّ فَجأةً أيضًا ، ثم لا يفصل بينها وبين الفقرة الحادية

والثلاثين بنَفَسٍ أو نَفَسين ليستريح ، بَلْ ينطلقُ كأنه لم يقُلْ شيئًا ، وكأن ختام الفقرة الثانية لم يكد يَفْصِل بعد عن لسانه وهو يقول : « فبدأنا بالشِّعر » ، فيستمر قائلًا : « ففصَّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزَّلناهم منازلهم ......» ، ويسير على هِينَته يعرض نهج كتابه حتى انقضى العرض عند آخر الفقرة الخامسة والخمسين . هذا عجبٌ ! وابتداؤه هذه الفقرة الحادية والثلاثين بالفاء العاطفة المعقّبة (أى التى تفيد العطف والتعقيب) فى قوله : « ففصلنا » منبتٌّ كُلّ البتِّ عن الفقرة الثلاثين ، وملتحم تمام الالتحامِ بالفقرة الثانية ، على بعد ما بينهما . فسياق كلامه إذن : « فبدأنا بالشعر ، ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية ...» ورحم الله أبا عبد الله وغفر له .

ما هذا الذى فعله ابن سلامٍ ؟ ولِمَ ؟ وفيمَ ؟ وعَلام ؟ وأسئلةٌ أخرى كثيرة ، فاستيقنت نفسى أنى لن أجد إلى جوابها سبيلًا إلّا بعد تحليل هذه الفقرة الثالثة تحليلًا شافيًا كافيًا معينًا على استخراج مَا كَمَن فيها وفى ألفاظها من دوافعه ومعانيه ، ثم أعرضُ ما أقف عليه عرضًا متّصلًا بلا مللٍ ، وإلّا فإنى واقف طويلًا حيث أنا من حيرتى وتلدُّدِى ، بلا بصيصٍ من نور يهدى . وما كذَّبتُ أن فعلتُ ، وكانت غُمةً فانزاحت ، وتبلَّج عَمودُ الصبح عن بياضه ، بحمد الله على إحسانه وفضله . وبيان ذلك :

أنى رأيت هذه الفقرة المباغتة التى شرع ابن سلام يحدثنا فيها عن « مصنوع ، مفتعل ، موضوع » ، قد اشتملت على ذكر « ناسٍ » لم يحدّد هو معارفهم وأوصافهم فى كلامه ، ولم يفصل بين ناسٍ منهم وناس ، واشتملت أيضًا على ألفاظ لا ندرى نحنُ حَدَّ معانيها عنده ، قبل أن تنتهِىَ إلينا محمّلَةً بمعان نشبتْ فيها على مرِّ القرونِ وعلى طول الاستعمال . فاستخرجت منها خمسة وجوه ملثّمةٍ ، لا بُدَّ من كشف القناع عن ملامِحها حتى نتبين قَسَماتِها تبينًا ينفى عَنْها الغموض والإبهام ، وهذه هى على ترتيبها فى كلام ابن سلام :

الوجهُ الأول : « قوم تداولوا شعرًا من كتاب إلى كتاب » . ولا ندرى مَنْ من الناس يَعْنى ابن سلام ؟

الوجه الثانى : وصف هؤلاء القوم بأنهم « لم يأخذوا هذا الشعر عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » ، فذكر « أهل البادية » « والعلماء » . وهذا أيضًا غير محدّد ، لأنا لا نعرف ماذا يريد بقوله « أهل البادية » ، ولا نعلم من هُمْ هؤلاء « العلماء » ؟

الوجه الثالث : ذكر قومًا آخرين سماهم « أهل العلم والرواية الصحيحة » ، لهم وحدهم حقّ إبطال بعض هذا الشعر ، ولكنه لم يبين من هم « أهل العلم » ولا معنى ما يريده بالرواية الصحيحة .

الوجه الرابع : ذكر « صحيفة » نهى عن قبول هذا الشعر عنها ، وذكر « صحفيًّا » نهى كُلَّ أحد أن يروى عنه هذا الشعر . وأيضًا تركَنا فى عمياء دون أن يحدّد لنا معنى ما يريدُ بالصحيفة ، ودون أن يبيِّن من يكون هذا « الصحفىّ » ؟

وهذه الوجوه ، غيرُ ممكنٍ تبيُّن ملامحها وحدودها على وجه الدقة ، فيما أظنُّ ، حتى يتمَّ توسُّم آخرِهنّ ، وهو الوجه الخامس ، ولذلك رأيتُ أن أتجاوزها حتى أفرغَ منه .

أمّا الوجه الخامس : فهو وجه « الشعر » ، وهو عندى أخفاهُنّ صورة ، وأعسرُهنّ على التوسُّم ، وهو أحقّ بالتقديم ، لأنه هو الحقيقة المشتركة الموزَّعَةُ بين جميعهنّ . وتحليلُ معانيه عند ابنِ سلامٍ فى سياق هذه الفقرة ، هو الذى سيضىء بنوره معارفَ هذه الوجوه الأربعة ، فنخرج من الشك والتردّد ، إلى اليقين والاطمئنان .

كان انتقال ابن سلام المفاجىء من منتهى الفقرة الثانية إلى رأس الفقرة الثالثة على هذا الوجه : « فبدأنا بالشعر ، وفى الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوعٌ كثيرٌ لا خير فيه » . وأيسرُ النظر والتأمل دالٌّ على أن فى أيدينا قسمةً واضحة ، تجعل « الشعر » قسمين : أحدهما ظاهر فى صريح لفظه ، وهو « الشعر المصنوع المفتعل

الموضوع » ، والآخر محدثٌ مضمرٌ يخرج بدلالة المخالفة وهو « الشعر غير المصنوع » . وظاهر السياق بعد ذلك يوهم أن كُلَّ ما فى هذه الفقرة مصروفٌ إلى الظاهر منهما وهو « الشعر المصنوع » وحده ، دون « الشعر غير المصنوع » ، ولكنّى بعد تأمُّلٍ وجدت الأمر غير مستقيمٍ ولا واضحٍ ، لأنه بعد أن فرغ من وصف «الشعر المصنوع» ، أتى بجملتين متتابعتين فيهما أربعة ضمائر ، أولاهن فيها ثلاثة ضمائر متتابعات فى قوله : « وقد تداوله قومٌ من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » ، فهذه الثلاثة لاَ غضاضة فى عودتها إلى « الشعر المصنوع » ، إلّا الضمير الثالث فى « لم يعرضوه » ، فإن عودته إليه قد تجعل هذه الجملة فضولًا محضًا لا معنى له ، لأنه إذا كان جوهر الحديث كُلِّه عن « الشعر المصنوع » وحده ، فعرضه على العلماء وترك عرضه عليهم سواءٌ ، فإنَّ عرضَه عليهم لا ينفعه شيئًا ، ومحالٌ أن يصحّحوه أو يصححوا شيئًا منه ؛ لأن الحديث هنا عن « الشعر المصنوع » لا عن غيره من الشعر .

ثم تأتى الجملة الثانية وفيها الضمير الرابع ، وهى قوله : « وليس لأحد ، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطالِ شىءٍ منه ، أن يقبل من صحيفة أو يَرْوِىَ عن صحفىٍّ » فإن هذه الجملة إذا كانت بضميرها هذا تمامًا لِسياق الحديث عن « الشعر المصنوع » وحده ، صارت أشدَّ فضولًا وبطلانًا واضطرابًا من الجملة السالفة ، إذ لا معنى لإِجماع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء ، أى بعضٍ من المصنوع دون بعض ، وهو عندنا هنا كُلُّه مصنوع . وإذا أجمعوا على إبطال بعض المصنوع ، فما حكم هذا الباقى ، وهو مصنوع أيضًا ؟ هذا خَلفٌ من الكلام غير مستقيم .بل أكبرُ من ذلك وأسوأ مصيرًا ، أنه إذا كان السياق كُلُّه عن « الشعر المصنوع » وحده ، فإنّ هذه الجملة تكون عطفًا على ما قبلها ، فإذا بدىء بالشرط الذى فيها ، والشرط محتاج إلى جزاء ، كان تركيبها هكذا : « وإذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه ، فليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » ، وهو كلام ، كما يقولون

« كبعر الكبش » ، يقع متفرِّقًا غير جارٍ على نظمٍ متصل ولا مشاكلة بين الشرط وجوابه ، و« بَعْر الكبش » ، هو الذى يقول فيه القائل :

وشِعْرٍ كبَعْر الكبْشِ ، فرّق بينه   لسانُ دَعِىٍّ فى القريض دَخِيلِ

وهذا لا يُقْبلُ ممن هو دون ابن سلامٍ بمنازل لا تعدُّ ، فما ظنُّك بابن سلام ! ولو كَانَ الحديث كله عن « المصنوع » وحده لكان حقُّ هذه الجملة أن تكون خاتمةً قائمةً برأسها ، غير معطوفة على ما قبلها ، وتكون نهيًا من ابن سلام عن قبول هذا المصنوع وروايته ، فيكون حقُّ تركيبها : « وليس لأحدٍ أن يقبَل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » بإسقاط الشرط المعترض الذى أحالَ معناهَا ، وجعلها من تمام الحديث « المصنوع » معطوفة عليه . وبذلك يستقيم الكلام على بعض الخلل .

بل إن الأمر سينتهى إلى فسادٍ فى المعانى والمقاصد أبلغ وأفحش ، فإنه يقول بعقب هذا الكلام مباشرةً : « وقد اختلف العلماء بعدُ فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى سائر الأشياء ، فأمّا ما اتفقوا عليه ، فليسَ لأحدٍ أن يخرجَ منه » فنحن بين اثنتين حيال هذه الجملة : إمّا أن تكون عن سياق حديثه عن « الشعر المصنوع » وحده ، والذى استمرّ فى الحديث عنه إلى آخر الفقرة الثالثة عشرة = وإمّا أن تكون جملةً معترضة قائمة على حيالها فى خلال الحديث عن « الشعر المصنوع » .

فإذا كانت الثانية ، وذلك أن تكون جملةً معترضة فى السياق قائمة على حيالِها ، لا علاقة لها بما قبلها من حديث « الشعر المصنوع » ، ولا بما بعدها منه ، كَأَنَّ ابن سلام أعرض عنه إعراضةً ليحدّثنا مبتدئًا عن « العلماء » الذين عندهم شعْر شعراءِ العرب ، ويدلُّنا على أنّ هؤلاء العلماء قد اختلفوا فى بعض ما عندهُمْ من شعر العرب ، واتفقـوا على بعض ، فما اتفقوا عليه فليس لأحدٍ أن يخرج منه = فإن كان هذا منه ، فمعنى ما حدَّثنا عنه صحيح لا غُبارَ عليه ، وهو حق كُلُّه ، لا يَقْدَحُ فيه أنه لم يبيّن لنا معنى اختلافهم هذا ، ما هو؟ وما صورته ؟ وعلى أىّ وجهٍ يكونُ ؟ أيختلفون فى نسبة قصيدة ، ينسبها بعضهم إلى

شاعر جاهليٍّ بعينه ، وينسبُها آخرون إلى جاهلى آخر ؟ أم فى نسبة بعض أبياتها إلى جاهلى ، ونسبة بعضها الآخر إلى جاهلى غيره أو إلى جاهليين آخرين ؟ أم فى نسبتها كُلِّها إلى مُخَضْرم أو إسلامىّ ؟ أم فى نسبة بعضها إلى جاهلىّ ، ونسبة بعضها إلى مخضرم أو إلى إسلامى ؟ ووجوه أخرى من الاختلاف كثيرة كلها صحيحٌ وممكنٌ . ولكن ينبغى هنا أن يبقى هذا الاختلاف بعيدًا كل البُعْد عن الصنع والافتعال والوضع ، لأنّ ابن سلام كما قلنا قد قطع هذا الحديث وأعرض عنه إعراضة ، ليحدثنا مبتدئًا عن شىء غير « الشعر المصنوع ».. وإذا كان ذلك كذلك ، فقد عدنا مرةً أخرى إلى « بعر الكبش » الذى يقع متفرِّقًا متعاديًا متنافرًا ، وبذلك يكون ابن سلامٍ قد ارتكب عملًا غريبًا جدًّا ، هو إسقاطه جملةً معادية لسياق حديثه عن « الشعر المصنوع » ، يقذف بها فى خلاله ، وفى موضع لا يليقُ بها ، وبلا هدفٍ مفهوم ، وبلا داع يدعوه إلى ذلك أو يسوّله له . وهذا غير سائغ ، بل هو فسادٌ واختلالٌ فى تنزيل الكلام منازِلَهُ ، وسَفَهٌ متهوّرٌ فى البيان والتبيين ، وهو على أىّ وجوهه غيرُ مرضىٍّ ولا مقبول . ولا أظن أنَّ أحدًا يرتابُ فى أنّ ابن سَلّام منزهٌ كل التنزيه عن مثل هذا الخلل والفساد بدلالة كتابه كُلِّه .

وأمّا إذا كانت الأولى ، وهى أن تكون هذه الجملة جزءًا من سياق قد أخلصه للحديث عن « الشعر المصنوع » وحده ، فعندئذ يصبحُ معنى قوله : « وقد اختلفت العلماء بعدُ فى بعض الشعر » أن العلماء قد اختلفوا فى بعض المصنوع من الشعر . وهذا كلام لا معنى له البتة ، على أى وجه كانَ . وليت شعرى فى أىّ شىء يختلفون ؟ أيختلفون فيمن صنعه وافتعله ووضعه ؟ مَنْ يكونُ أو مَنْ يكونون ؟ هذا سخفٌ وقّلة عقلٍ = أم يختلفون فيقول بعضهم : هذا الشعر المصنوع مصنوع ، ويقول آخرون : هذا الشعر المصنوع غير مصنوع !! هذه تخاليط ممرورين لا اختلاف علماء . وأشنع من اختلافهم اتفاقهُم : أيتفقون على بعض الشعر المصنوع أنه مصنوع ؟ وإذن ، فما حكم باقى المصنوع ؟ أيفوِّض هؤلاء العلماء أمره إلى غيرهم ليحكم عليه ؟ فيقول المحكَّم ماذا ؟ هذا

كُلُّه عجبٌ وفوق العجب ، وهو بيقين باطلٌ وفوق الباطل ، ومحالٌ أن يريد هذا المعنى رجل متهافت العقل ، فما ظَنُّك بابن سلام . وإذْ بطل هذا الفرض يقينًا ، فلم يبق إلّا الفرض الأوّل ، أن تكون هذه الجملة معترضة قائمة على حيالها ، لا علاقة لها بالحديث عن الشعر المصنوع = وأنها من حيث هى جملةٌ تامة ، صحيحةُ المعْنَى ، على رغم كُلِّ ما قلته آنفًا من وقوعها موقعًا غريبًا معاديًا لسياق ما سبقها ، وعلى رغم كل ما أدَّى إليه هذا الموقع الذى لا يليق بها .

وهذا التحليل الموجز المقتضب قد أفضى إلى غرائب فى تركيب هذه الفقرة ، وهذه هى على تتابعها فى السياق :

أولاها : قوله فى أوّلها : « وفى الشعر مصنوعٌ مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حجَّة فى عربية ، ولا أدبٌ يُسْتفاد ، ولا معنًى يستخرجُ ولا مثل يضربٌ ولا فخرٌ معجبٌ ولا نسيبٌ مستطرفٌ » وهذا بلا ريب حديث طويل عن « الشعر المصنوع » وكشف عَنْ عُوَاره .ثم يقول بعقبه ، وقد صَرَف أذهاننا كُلَّها إليه : « وقد تداولَهُ قومٌ من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوهُ عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » ، فالضمائر الثلاثة فى هذه الجملة مصروفة إلى « الشعر المصنوع » وحده خالصة له ، وهى لائقة به لا تُستنكر .

ثانيتُها : وهى الجملة التى تليها مباشرة ملاصقة لها ، وهى قوله : « وليس لأحدٍ ، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه ، أن يقبَل من صحيفة ، ولا يروى عن صُحُفىٍّ » ، فهذا الضمير الرابع فى « شىء منه » ، هو أخو الضمائر الثلاثة وشقيقها راضعٌ بلبانها ، أو ابن عمها لَحًّا ، لازق نسبه بنسبها . والتبعيض فى « شىء منه » تبعيض لما يعود إليه هذا الضمير ، وهو « الشعر المصنوع » ، والشرط المزحزَح عن مكانه ، يجعلُ الجملة معطوفة على ما سبقها من حديث عن « الشعر المصنوع » ، وأصل سياقة جملة الشرط هكذا : « وإذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه ، فليس لأحدٍ أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفىّ » . وهذا خَلْف من الكلام لا يستقيم من وجوهٍ ، أفدحُها أن لا معنى لِإجماع أهل العلم والرواية على إبطال بعض

المصنوع دون بعضٍ. هذا، فضْلًا عن أن قوله: « فليس لأحدٍ أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »، هو جزاءٌ للشرط فى صدر الكلام من جهة التركيب النحوىّ، ولكنه من جهة المعنَى « بعر كبش » محض، إذْ لا مشاكلة بين المعنى الذى فى الشرط والمعنى الذى فى الجزاء، كالذى يقول: « إذا كبَّر الإمامُ مستقبل القبلة وكبَّر المأمومون، فليس لأحد أن يعبدَ غير الله »!! وهو كلام كما ترى! وإذا أريدَ لهذه الجملة أن تدخل فى حيّز الحديث عن« الشعر المصنوع »، فلا مفرّ من إسقاط جملة الشرط برُمَّتها، فتكونَ ختامًا للحديث عن « الشعر المصنوع » ونهيًا عن قبوله، أى تصير: «وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى»، فهى عندئذ لائقة بالحديث عنه، غير مستنكرة فيه. ولكن أنَّى لنا هذا!.

وثالثة الغرائب: جملة تختم بها هذه الفقرة التى جرى الحديث فيها خالصًا للشعر المصنوع، وهى قوله: « وقد اختلفت العلماء بعدُ فى بعض الشعر، كما اختلفت فى سائر الأشياء، فأمّا ما اتفقوا عليه، فليس لأحدٍ أن يخرج منه »، فكانَ محالًا كذبًا، كما يقول سيبويه، أن يكون لفظ « الشعر » فيها يرادُ به « الشعر المصنوع »، وإلّا صار اختلاف العلماء واتفاقهم هنا ضربًا مزيدًا من تخاليط الموسوسين. ولكنها إذا فصلت عن السياق، فهى فى ذاتها صحيحة المعنى لا غبار عليها، لا بل صادقة بيّنة الصدق، لأن العلماء فيما نعلمه يقينًا قد اختلفوا فى بعض ما عندهم، واتفقوا على بعضٍ. ولما كان ذلك كذلك، وكانت محالًا كذبًا فى سياق ما قبلها، فهى إذنْ جملة معترضة قائمة على حيالها، نُزّلت فى الكلام منزلا لا يليقُ بها، وهو تنزيل، شئنا أو لم نشأ، مُخِلٌّ متهوّرٌ.

وإذنْ فهذه فقرة فيها ثلاث جمل متتابعات آخذ بعضها برقاب بعض: الأولى أصْلٌ فى الحديث عن « الشعر المصنوع »، بلا ريب، وفيها ثلاثة ضمائر راجعةٌ إليه = والثانية: فيها ضمير رابع هو شقيق الضمائر الثلاثة الماضية، وبذلك صارت من تمام الحديث عن « الشعر المصنوع »، ولكنها عندئذٍ أيضًا خَلْفٌ من

الكلام لا يستقيم، وكلام أيضًا يعادى بعضه بعضًا = والثالثة: بيقين قاطع خارجة من سياق الحديث عن «الشعر المصنوع». هل هذا ممكن؟ هل هذا لائق؟ هل هذا كلام؟ والأمرُ لله من قبل ومن بعد!!

* * *

وقعْنَا، إذن، فى الذى يقول فيه مضرِّسُ بن رِبْعيٍّ الفقعسيّ:

وليلٍ يقُول القومُ من ظُلُمَاتِه   سَوَاءٌ بَصِيراتُ العُيون وعُورُها

سواء بصيرات العيون وعورها! لا حولَ ولا قوة إلا بالله. ما الذى أوقعنَا فى هذا التِّيهِ المتراكب الظلماتِ. إنّه التحليل! أليس كذلك؟ ولكن لا، ولا بُدَّ من بيانٍ نستطردُ به كما استطرد أسلافنا رحمهم الله. فالتحليل، فى الكلام وفى غير الكلام، أمر عسيرٌ يشقّ على الناس، ولا سيما فى زماننا. لأنّه يبدأ بانتزاع شيء مجتمعٍ له صورة ومَعْنىً، يجزِّئه المحلل أجزاءً دقيقة، فيصير كل جزء منفردًا على حياله، ثم ينظر فيه على حياله أيضًا، ثم يبحث المحلل بعدُ عن الروابط التى تربط كُلَّ جزءٍ بأخيه، ثم عن الروابط الأخرى التى تجعلهُ شيئًا مجتمعًا له صورة ومعنى. وهذا عناءٌ عسرٌ بلا ريب، ولكنه فى الحقيقة عناءٌ لذيذٌ، وعنتٌ مرغوبٌ فيه، لأنه يُفضى بنا إلى غاية من الرضى والاطمئنان، وإلى الثقة بوضوح الصورة، وإلى التثبُّتِ من سَلاَمة المعنى، وإلى التحقُّق من براءة الروابط من كُلِّ عيبٍ يقدحُ فى وضوح الصورة، وفى سَلاَمة المعنى وانتِظامه جُملَ الكلامِ من أوله إلى آخره. وقد نظنُّ أن تحليلنا هذا الموجز، لم يُفض بنا إلى شيء من ذلك، بل زاد حيرتنا خبالاً. هذا ظاهرُ الأمر، نعم، ولو لجأنا إلى ضروب أخرى من التحليل هى فى طبيعتها أعنف وأغمض وأوغَل وأقسى، لزاد الأمر عسْرًا وعنتًا فيما أظنُّ، ولكنّى فى الحقيقة مطمئنٌّ إلى أنّ هذا التحليل الذى زاد حيرتنا، هو الذى سوف يعيننا على التهدِّى إلى مخرج ينقذنا من هذا التِّيه ومن ظلماته، وينقذ ابن سلامٍ أيضًا معنا، لأنه كان هو قائدنا الذى قذف بنا فى ظلماته، وإذا لم نصبر على التحليل فى هذه الفقرة

الثالثة ، فإن مصير المعانى التى ساقها ابن سلّام فى رسالة كتابه هذا ، سوف تكون أشدَّ تهالكًا واضطرابًا وتنافرًا من هذه الفقرة ، التى قلت قبلُ إن غيابهَا من طبعة الأعجمى يوسف هِلْ كان ضارًّا بفهم كلام ابن سلّام وبمقاصده ، وأن حضورَها فى طبعتنا كان ضارًا أيضًا فى فهم هذه المعانى والمقاصد . وسأنصرف الآن عن تمام التحليل المجرّد إلى طلب المخرج ، ولكن لا تظن أنى سأفارق التحليلَ بتَّةً واحدةً لا رجعةَ فيها ، فهذا ليس مذهبى ولا طريقى فى المعرفة والعِلْم ، ولكنى سأجتهد أن أنفِيَ ما يُزْعِجُ وما يشقُّ وما يجلبُ العنت ، بلا مفارقةٍ قاطعةٍ بينى وبين مذهبى وطريقى .

وأعودُ أدْراجى إلى المَطْلب الأول ، وهو كشف القِناع عن خامِس الوُجوه الملثَّمة فى الفقرة الثالثة من كلام ابن سلام وهو « وجه الشعر » ، لأنه هو الذى ألجأنا باستطراده إلى شيء غريبٍ عجيبٍ ، وهو أن نعودَ بعد القرون المتتابعة منذ الجاهلية الأولى إلى يومنَا هذا ، إلى محاولةٍ منكرَة فى لفظ « الشعر » نلتمس بها تحديد معارف وجهه وملامحه وصورته عند ابن سَلَّامٍ .

ووجهُ «الشعر » عندنا نحنُ عربَ اليوم ، وعند أسْلافنا منذ دهورٍ متطاولةٍ ، ومنهم ابن سلام نفسه ، وجه معروفٌ لا يتنازع فى تبيُّنِه أحدٌ ، هذا أمرٌ مسلَّمٌ به فيما أظنُّ . ولفظ « الشعر » فى لسان العرب موضوع للدلالة على كل كلامٍ شريف المعنى ، نَبِيل المبنى ، محكم اللفظ ، يضبطهُ إيقاعٌ متناسب الأجزاء ، وينتظِمُه نَغَم ظاهرٌ للسَّمْعِ ، مفرطُ الإِحكام والدقة فى تنزيل الألفاظ وجَرْسِ حروفها فى مواضعها منه ، لينبَعِث من جميعها لَحْنٌ تتجاوبُ أصداؤه متحدِّرةً من ظاهر لفظه ومن باطن معانيه ، وهذا اللحن المتكامِلُ هو الذى نسميه « القصيدة » ، وهذا اللحنُ المتكامل مقسَّمٌ أيضًا تقسيمًا متعانق الأطْراف متناظِر الأوْصال ، تحدّدُه قوافٍ متشابهة البناء والألوان ، متناسبة المواقِع ، متساوية الأزمان ، هذا هو « الشعر » . والذى يتوخَّى هذا الضرب الشريف النبيل المحكم من الكلامِ ، ويأخذه بِحَقِّه ، ويَبْذلُه بِحَقِّه ، فتصغى إليه الأسماع والألباب مأخوذةً بسحره وجماله وجلاله ، هو « الشاعر » . هذه هى بديهة اللغة ، وبديهة

أصحاب اللسان العربىّ قديمه وحديثه ، فى الأحقاب بعد الأحقابِ . والذى يسمع مثلًا ما رواهُ أبو عبد الله البخارىّ فى صحيحه ، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل فى مسنده ، من حديث أبىّ بن كعب الأنصارىّ ، سيّد قراء القرآن ، أنّ رسول الله ﷺ قال : « إنّ من الشِّعْر حكمة » . لا يخالجه ارتيابٌ يدعوه إلى طلب حدٍّ أو رسمٍ أو تَصْنيف للفظ « الشعر » ، ولا يلتمسُ له بيانًا سوى هذا البيان الحاضر فى كل نفسٍ عربيّة على بديهة اللغة ، وعلى البديهة التى توارثها أصحاب اللسان العربى من المحدَثين والقدماء . فهل يرتاب فى ذلك أحد ؟ أظنّ أنْ لاَ .

فإذا جاء أبو عبد الله محمد بن سلام الجحمى ، وقد عقد عزمه على أن يؤلِّف كتابًا فى « الشعر » و«الشعراء » ، ورأى أن يعرض علينا منهجه فى تأليف الكتاب ، لم يخالجنا شَكٌّ فى معنى هذين اللفظين على ما فى أنفسنا من بديهة اللغة . وإذا بدا لَهُ أن يبدىَ لنا عُذْره الذى حمله على جعله كتابًا مختصرًا غير مستوعب لشعر العرب وشعرائها جميعا ، فنحن معه نتابعه على هذه البديهة العربية . فإذا ابتدأ كتابه برسالةٍ يذكرُ فيها هذا العذر بكلام مُتَّصِلٍ بلا استطرادٍ يجمع الفقرة الثانية من تقسيمنا نحن للكتاب . إلى أختها التى لا يتمُّ الكلام إلّا بها فقال : « ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانُها وساداتُها وأيامُها . فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالمٌ ولا يستغنى عن علمه ناظِرٌ فى أمر العرب فبدأنا بالشعر ، ففصّلنَا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلامَ فَنَزَّلناهم منازلهُم ، واحتجبنا لكل شاعرٍ بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء ... » ، ومضى على ذلك حتى يفرغ من كتابه كله . فنحن معه بلا ريب على بديهة اللغة وبديهة أصحاب اللسان العربى وورثته ، لا يخامرنا شَكٌّ فى أنه عنى بالشعر ، هذا الكلامَ الشريف النبيل المحكم الذى وصفناه ، وعنى بالشعراء ، هؤلاء العرب الذين أخذوا الشعر بِحَقِّهِ وبذلوه بِحَقِّهِ . كما قلنا . ولم نحتج نحن

إلى سؤالِه عن معناه عنده ، ولا يرى هو حَاجةً إلى أن يبيّن لنا بيانًا آخر عنهما . أليس كذلك ؟ بلا ريب ، بلى ، وجيرِ ، أيضًا كما يقول امرؤ القيس .

ولكنَّ ابن سلامٍ لم يفعل ذلك ، بل فعل ما أشقانا وأشقاه وأشقى كلامَه ، وقف يستريح استراحةً لينفِّس نفسًا أو نفسين عند آخر قوله : « فبدأنا بالشّعر » ، وغابَ عنَّا غَيْبةً ، ثم إذا به يأتى من تلك الغيبة منقضًا مسرعًا عجلًا ثائرًا، مخترمًا حديثه عن « الشعر »، مقتحمًا بديهتنا التى كنّا معه عليها ، متهجِّمًا على بديهة اللغة المتوارَثة ، محدثًا فيها صدعًا جائرًا بائنًا وهو يقول : « وفى الشعر مصنوع مفتعل موضوعٌ كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حجة فى عربية ، ولا أدبٌ يستفادُ ، ولا معنى يستخرجُ ولا مثلٌ يضربُ ، ولا مديحٌ رائع ، ولا هجاءٌ مقذعٌ ولا فخرٌ معجبٌ ولا نسيبٌ مستطرفٌ » ، ولولا أنه تعب ، فيما أظنُّ ، لما كفكفَ من انقضاضه وعجلته وسرعته وثورته شيئًا حتى يستقصى كُلَّ عيبٍ كائنٍ فيما يتحدث عنه ، أىُّ « شعر » ، هذا الذى فيه ما فيه ممّا وصفَ بعدُ ؟ أهو « الشعر » الذى تعرفُه بديهة اللغة وبديهة أصحاب اللسانِ العربى ، وهو كل كلام شريف المعنى ، نبيل المبنى ، محكم اللفظ ، كما وصفناه آنفًا ، والذى قال فيه ﷺ : « إن من الشعر حكمة » ؟ بلا ريبٍ لاَ . أهو « الشعر » الذى عقد ابن سلام عزمه على أن يؤلف فيه كتابًا ، فحدثنا عنه إلى أن وقف عند قوله : « فبدأنا بالشعر » ؟ بلا ريبٍ لاَ ، أيضًا .فإذا كان ذلك صحيحًا ، وهو صحيح بلا ريب ، فما معنى هذا الذى اخترم به ابن سلام بديهة اللغة ، وصدعَ به هذه البديهة صدعًا بائنًا بقوله : « وفى الشعر مصنوع مفتعل ...» إلى آخر ما قال ؟

وفى بعض الأناةِ خيرٌ إن شاء الله . هذا « الشىء » الذى سلبه ابن سلّام كُلّ فضيلة فقال : « هو مصنوع مفتعل موضوع لا خيرَ فيه ، ولا حجة فى عربية ، ولا أدب يستفادُ ، ولا معنى يستخرجُ ، ولا مثل يضربُ ، ولا مديحٌ رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر مُعْجب ، ولا نسيبٌ مستطرف » ، ولولا التعبُ لزادَ وبالَغ ، أهذا « الشىء » الذى سلبه كل فضيلة ، وهو كلامٌ بلا ريب ، ممكن أن يدخُل فى الكلام الشريف النبيل المحكم ، الذى تُلْتمس فى بعضِه الحكمة ،

والذى هو « الشعر » ، على بديهة العرب وبديهة لغتهم ، ويكون جزءًا منه أو معدودًا فيه أو مسمًّى باسمه ؟ أظنُّه محالًا مفرط الاستحالة ، وأنا لا أحبُّ أَن أستقصى هنا الأسئلة ، وأعودُ محلِّلًا موغلًا فى التحليل مرةً أخرى ، فمن أجل ذلك أوجزُ مقالتى ما استطعت . وأنا لا أشكُّ أن ابن سلّام لما جاء مقتحمًا متهجمًا على بديهة لفظ « الشعر » ، كادَ يفلتُ لسانه فيقول : « وفى الشعر ، « شعر » مصنوع مفتعلٌ موضوع ...» ولكنه أمسك وردّ اللفظ ، مستَنْكِفًا متقذِّرًا ، من تسمية هذا الكلام المسلوب كُلَّ فضيلة « شعرا » ، فقال : « وفى الشعر ، مصنوع مفتعل موضوع » ، لأنّه أبىَ من أن يجعل هذا الشىء المتقذِّر قسيمًا للفظ « الشعر » الشريف النبيل المحكم ، أو نظيرا له ، أو بعضا منه ، وعَجِل ، فلم يغيِّر ما ابتدأ به ، وأفاض فى سلب الفضائل عمّا تقذَّره من الكلام .

والدليل على هذا الذى أقول قائمٌ حاضر فى كلام ابن سلام نفسه فيما بعد ذلك بقليل ، ومأخوذ عنه ، فإنه لما فرغَ من هذه الفقرة الثالثة ، وعقَّب عليها بحديثٍ يتصل ببعضها اتصالًا وثيقًا ، بدأ فى الفقرة السابعة يدلنا على أسباب ثورته وعجلته ، فقال ، وتأنَّ عند كُلِّ لفظ من قوله : « وكان مِمَّنْ أفسد الشِّعر وهجَّنهُ ، وحَمَل كُلَّ غُثاءٍ مِنْه : محمد بن إسحق بن يسار مولى آل مخرمة... وكان من علماء الناس بالسير = قال الزهرى : لا يزالُ فى الناس علمٌ ما بقى مولى آلِ مخرمة . وكان أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك ، فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، أُتِينا به فأحملُه . ولم يكن ذلك له عذرًا . فكتب فى السير أشعارَ الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قطّ ، وأشعار النساء فضْلًا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمود ، فكتب لهم أشعارًا كثيرة ، **وليس بشعر** ، إنما هو كلام مُؤلَّفٌ معقود بقوافٍ » . هذه واحدة .

ثم إنه قال فى آخر الفقرة الثانية عشرة ، بعد أن فرغَ من استطراده فقال : « ونحن لا نجد لأوّلية العرب المعروفين شِعْرًا ، فكيف بعادٍ وثمودٍ ؟ فهذا الكلام

الواهنُ الخبيثُ ، ولم يَرْوِ قطُّ عربيٌّ منها بيتًا واحدًا ، ولا راويةٌ للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طُلاوته » ، هذه ثانية .

ثم عقَّب على ذلك بالفقرة الثالثة عشرة ، التى ختم بها هذا الجزء من استطراده المقتحم ، ما بين الفقرة الثانية والفقرة الحادية والثلاثين ، فقال الجملة المشهورة التى زلَّ عليها من زلَّ من المشكِّكين فى الشعر الجاهلى ، وهى قوله : « وقال أبو عمرو بن العلاء فى ذلك : ما لسان حميرَ وأقاصى اليمن اليومَ ، بلساننا ، ولا عربيتهُم بعربيتنا ، فكيف بما على عهد عادٍ وثمودَ ، مع تداعيه ووَهْيه ، فلو كانَ الشِّعر مثلَ ما وُضِع لابن إسحق ، ومثل ما روى الصُحُفيُّون ، ما كانت إليه حاجةٌ ، ولا فيه دليلٌ على عِلْم » هذه ثالثة .

ثم لما فرغ ابن سلام من استطراده بعد الفقرة الثلاثين ، ودخل فى تتمة عرض كتابه منذ الفقرة الحادية والثلاثين ، ذكر دليله على ذهاب شعر الجاهلية وسقوطه (أى ضياعه ونسيانه فسقط من ذاكرة العرب) فقال فى الفقرة الرابعة والثلاثين : « ومما يدُل على ذهاب الشعر وسُقُوطه ، قلةُ ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعَبِيدٍ ، اللذين صحَّ لهما قصائدُ بقدرِ عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهُنَّ ، فليس موضعُهما حيثُ وُضِعا من الشهرة والتقدِمة . وإن كان ما يُرْوَى من الغُثَاءِ لهما ، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة » فهذه رابعة .

وهذه الأربعة فيها تمام نعت « الشيء » الذى تقذَّرت بديهته العربية أن تسميه شعرًا ، فأسقط الموصوف من عبارته واستبقى الصفة ، فقال : « وفى الشعر مصنوعٌ مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حجَّة فى عربية ، ولا أدبٌ يستفادُ ، ....» ، إلى آخر النعوت التى سلبته وعرّتْه من كُلِّ فضيلة حتى بدت سوأتُه . وتمامُ هذه النُّعوت المعرِّية ، أنه « الغثاء » ، و« الكلام الواهنُ الخبيث » ، « مع ضعف أسره وقلَّةِ طُلاوته ، و« مع تداعيه ووَهْيه » ، و« لم يروِ قطُّ عربيٌّ منه بيتًا واحدًا ولا راوية للشعر » ، و« لو كان الشعر مثلَ هذا الذى وُضِع لابن إسحق ، ومثلَ ما رَوَى الصحفيون ، ماكانت إليه حاجة ، ولا فيه دليل على

علم ، ثم نفَاهُ نفيًا منْ طريقه فقال : « وهو ليس بشعرٍ ، إنما هو كلامٌ مؤلفٌ معقودٌ بقوافٍ » .

وإذن ، فابْن سلّام يستنكف أن يكون هذا الكلام الواهن الخبيث المصنوع المفتعل ضريعًا للشعر ، أو قسيمًا له يشاركهُ فى الاسم ، أو نظيرًا له وإن باينه فى الصفة ، أو جزءًا منه يفارقهُ فى الجودة أو الرداءة ، أو معدودًا مَعَه يقع تحت الطرف البعيد من أقاصى ظِلِّه ، فنفاهُ نفيًا ، ولم يُطِقْ إلّا أن يسمّيه ، لخبثه وَوهْيه ووهنه ، « كلامًا مؤلفًا » قد عُقِدت أواخره بقافية ! وحين احتاج إلى الإشارة إليه فى سائر كلامه ، وفى أكثر من عشرة مواضع ، لجأ إلى الحيلة فى العبارة عنه ، تقزُّزًا من أن يختلط هذا الغثاء الخبيث ، بالكلام الشريف النبيل المحكم ، معدنِ الحكمة ، وهو « الشعر » ، فهجر هذا اللفظ المفرد ، ولجأ إلى الجمع وهو « الأشعار » ، فأطلقه عليه حيث وقع من كلامه ، لأنّ اللغة استعصت عليه أن يجد له فيها وسمًا يسمُهُ به ، أو لفظًا يدلُّ عليه ، ولأنَّ هذا الغثاءَ الخبيثَ مطروحٌ على وزن الشعر معقودٌ بمثل قوافيه ، ولأنّ بعضه ينسب إلى من تعرف من الشعراء ، أو إلى ناسٍ تكذّبَ واضعوه عليهم فأقحموهم مع الشعراء ، فأشار إليه بقوله « الأشعار » ، ولكنه ليس من « الشعر » المعروف فى بديهة اللغة فى شىء ، لا قليل ولا كثير .

وإذنْ ، فابن سلّامٍ حين انتهى عند قوله : « فبدأنا بالشعر » ، وسكت يستريحُ ، ثم جاء بغتةً منقضًّا ثائرًا متقحِّـما عجلًا مندفعًا يقول : « وفى الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه » ، قد اخترم بديهة اللغة ، وبديهة سامعيه ، وبديهة نفسه هو ، وصدع البديهة صدعًا بائنًا جائرًا ، وكان فى عجلته وتسرُّعه الزَّلَلُ والخطأ فى التعبير ، وصارَ ظاهرُ لفظِهِ الذى سبق لسانهُ أناتَـهُ وفِكْرَه ، يُوهِـم من قُربٍ أن الكلام الشريف النبيلَ المحكمَ معدِنَ الحكمة ، الذى تتفجّـر ينابيعه على ألسنة الشعراء عبيد « الشعر » ، وذلك الغثاء الخبيث الواهن المؤلف المطروح على عقد القوافى ، والذى لا يُعرف لَـهُ أبٌ ولا صاحبٌ = كلاهما يقع عليه لفظ « الشعر » المعروف ببديهة اللغة وقوعًا واحدًا = وأن هذا الخبيث قسيم ذلك الشريف فى دلالة اللفظ ! .

ومِنْ جرَّاء هذا الإِيهام القريب الظاهر قلت فى فاتحة تحليلى السالف : « إنّ أيسر النظر والتأمُّل ، دالٌّ على أن فى أيدينَا قسمةً واضحةً ، تجعل الشعر قسمين : أحدهما ظاهر فى صريح لفظه ، وهو الشعر المصنوع المفتعل الموضوع ، وآخر محدثٌ مضمرٌ يخرج بدلالة المخالفة ، وهو « الشعر غير المصنوع » ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد تبيّنَ الآن أن هذا قـولٌ باطـل أشد البطلان عندنا وعند ابن سلام نفسه = وأنّ الذى فى أيدينا إنما هو وهمٌ فاسدٌ = وأن ليس فى أيدينا قسمةٌ واضحة أو غير واضحة ، وأنْ ليس فى أيدينا ظاهرٌ يقال له « شعر مصنوع » ، بل غثاءٌ خبيث معقود بقواف ، وأن ليس فى أيدينَا مُضْمرٌ يخرج بدلالة المخالفة يقال له « شعر غير مصنوع » ، لأنّ لفظ « شعر » جارٍ أبدًا على بديهة اللغة وبديهة ورثتها ، لا يحتاجُ إلى صفة تُبين عنه ، أو نعتٍ يميّزه من غيره . وإذن فقد بطلت القسمة ، وهلك التقسيم الفاسدُ ، وبقى لفظ « الشعر » فى قول ابنِ سلام : « وفى الشعر مصنوع » ، جاريًا على بديهته ونقائه وشرفه ونبله ، مبرَّأً من كُـلِّ حاجةٍ إلى بيانٍ يَرْفع من خَسِيسَته ، لأنه بائن من كل كلام بشرفه ونبالته . وآخر عُذْرٍ لأبى عبد الله محمد بن سلام الجمحى أنّه عجِلَ ، فزلّ ، فأخطأ ، فأضلَّنا خطؤه عن مراده . ولكن هل من سبيلٍ إلى معرفة السِرّ الذى قاده إلى هذا الزلل ، وإلى تبيُّن الصوابِ الذى ينفِى هذا الخطأ ، وإلى المخرج من التِّيه المتراكب الظلماتِ الذى أوقعتنا فيه هذه الفقرة الثالثة المحيِّرة ، فى فاتحة رسالة « طبقات فحول الشعراء » ؟ فأقول : نعم ! ونُعَامَى عَينْ .

* * *

ويبدو أن الحيرة التى رافقتنا بما أحدثته الفقرة الثالثة ، فعالجت أمرها حتى كدت أَفْلَتُ منها ولمّا ، عادت تحاصرنى الآن بأسباب من قِبَل نفسى ! بأيِّهما أبدأ ، أبالبحث عن سِرّ ما أوقع ابن سلام فى الزَّلل ، أم بتبيُّن الخطأ فى عبارته ، وتصحيح سياقها ؟ وسياقُ ما كُنّا فيه آنفًا يتطلب أن أبدأ بثانيهما ، ليكون سياقًا واحدًا ، بعد أن ثبتَ أنه محالٌ أن يكون بناء الفقرة الثالثة مقصورًا على الغثاء

المصنوع المفتعل الموضوع وحده ، وأشدُّ منه استحالةً أن يكون لفظُ « الشعر » فى عبارة ابن سلامٍ واقعًا على هذا الغثاء الخبيث مشتملاً عليه ، فيكون بعضًا منه ، أو داخلًا فى بديهته . ولكنّى تأمَّلتُ ، وجدت أن ما فى صدرى فى الحديث إذا أنا تابعت السياق مضطربٌ غير قابل للبيان ، أو على الأصح وجدتنى محبوسا عن هذا البيان . وأنا كثير الترداد ؛ لما قرأته قديمًا من كلمة لإمامنا محمد بن إدريس الشافعى ، بلغ بها أقصى غوامض النفس الإنسانية التى علَّمها الله البيانَ بقدرته وعزَّته ، وفوّض إليها الجهاد فى بلوغ ما تريدُ منه . وذلك أن الإمام يونس ابن عبد الأعلى الصدفىّ المصرى ، وهو من أصحاب الشافعى ، وكان ركنًا من أركان الإسلام فى زمانه (١٧٠- ٢٦٤ هـ) سأل الشافعى يومًا عن مسألة ، فقال له : « يا يونس ، إنّى لأجدُ بيانها فى قلبى ، ولكن لا ينطلقُ به لسانى » . ما أروعَها كلمة ! وكل ناطق بلسان أو كاتبٍ بقلم ، يجد ذلك فى نفسه وجدانًا ظاهرًا ، إذا أخذ البيانَ بحقّه ، وحَرَص على إجادته . وأنا أجد هذا فى نفسى الآن ، وأنا أحاولُ أن أسوق الحديث على وجهه من التعانق والتواصل ، وأجدهُ عسيرًا أن أُبين عن جميع ما فيها ، لأن بعض هذا الحديث يخلجُنى ويشدُّنى شدًّا إلى الحديث عن سرّ ما أوقع ابن سلام فى الزلل ، لأنهما فى الحقيقة مترابطان . فجعلت أميِّل الرأىَ بين الأمرين حائرًا حتى كاد يضيع وقتى فى الحيرة . وبعد لأيٍ عزمتُ على أن أبدأ بأولهما كما وقع اتفاقًا فى ترتيب الأسئلة ، مهما يكن فى ذلك من انقطاع حديثى عن الفقرة الثالثة .

وُلِد أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحىّ بالبصرة سنة ١٣٩ ، وقضى بها أكثر عُمره ، ثم بدا له فانتقل إلى بغدادَ سنة ٢٢٢ ، وهو فى الثانية والثمانين من عمره ، وأقام بها حتى توفى فى سنة ٢٣١ ، وقد بلغ الثانية والتسعين . وقد بلغ ابن سلامٍ مرتبة الإمامة فى علم الشعر والأخبار ، حتى قال الرياشىّ عنه : « أحاديثُ محمد بن سلام عندنا (يعنى عند أهل العلم والرواية الصحيحة) مثل حديث أيوب ، عن محمد ، عن أبى هريرة » ، يعنى حديث أيوب بن أبى تميمة السَّختيانى ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فى الصحة

والسلامة والقوة ، ومع ذلك لم يقع فى أيدينا من كتب ابن سلّام سوى كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وقد دلت رسالة هذا الكتابِ الذى أفرده للشعر ، على أنّه سوف يتبعه بكتاب أو كتب عن « أشراف العرب وساداتها وفرسانها وأيامها » . وفى فهرس النديم أن له كتابًا سماهُ « بيوتات العرب » ، لم يصل إلينا منه شيء ، وظنّى أنه كتابٌ عن « أشراف العرب وساداتها وما لهم من شعر » . ودلَّنا أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى على كتاب آخر هو كتاب « الفرسان » أو « فرسان الشعراء » ، لم يصل إلينا نصًا ، ولكنه كان عند أبى الفرج ، تلقَّاهُ مكتوبًا من أبى خليفة الفضل بن الحباب الجُمحىّ ، ابن أخت ابن سلامٍ . وظاهر كلام ابن سلام فى رسالة الطبقات ، أنه ألف كتاب «الفرسان» ، وكتابَ «بيوتات العرب»، بعد تأليفه كتاب الطبقات . فمتى ألَّفَ هذه الكتب الثلاثة ؟ وأولهنَّ خاصةً ؟

وترجمة ابن سلام في كتب تراجم الرجال والعلماء والأدباء ، مختصرة موجزة لا تكاد تشفى ، وقلّما يذكر مؤلفوها زمان تأليف العلماء كتبهم ، فنحن نعتمد فى ذلك على الاستظهار لا غير . وأنا فى خلال تتبُّعى للكتب التى ألتمس فيها نقلًا من كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، لم أجد خبرًا عن ابن سلّام يطابق نصه نصَّ ما في كتاب «الطبقات»، إلّا وهو مرويٌّ من طريق ابن أخته الحافظ مسند عصره أبى خليفة الفضل بن الحُباب الجُمحى . فاستظهرتُ من ذلك أن ابن سلامٍ لم يقرأ كتابَه على أحدٍ ، ولم يروه عنه سماعًا وحفظًا سوى ابن أخته أبى خليفة الجُمحى ، وكان فى آخر عمره ضريرًا ذاهب البصر . واستظهرتُ أيضًا أن كتاب الطبقات وكتاب الفرسان ، وكتاب بيوتات العرب ، لم يذع أمرها فى حياة ابن سلام ، ولم تكنْ عند أحدٍ منها نسخةٌ . واستظهرتُ أيضًا أن كتاب الطبقات ، كان عند أهلِه ببغداد عند وفاته سنة ٢٣١ ، ثم آلت إلى أبى خليفة ونقلت إلى البصرة بعد زمانٍ من وفاته ، وأنّ أبا خليفة لم يُخرجْ كتب خاله إلى الناس إلا بعد دهر طويل ، فقرأها عليهم وأخذوها عنه .

ودليل ذلك أنِ عندنا اليوم نسختين عتيقتين من كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، أقدمهنّ نسختى التى نشرتها ، والأخرى نسخة المدينة شرّفها الله

وصلى الله على صاحبها صلاةً طيبةً وسلَّم ، وهى على النِّصف من نسختى ، لأن صاحبها اختصرها اختصارًا شديدًا . ولهاتين النسختين ثلاثة أسانيد عن أبى خليفة : إسنادان فى نسختى ، وإسنادُ نسخة المدينة .

والإسناد الأول : رواية أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أُسَيدٍ الأصفهانى (المتوفى سنة ٣٣٦) عن القاضى أبى خليفة الجمحىّ . وأبو خليفة ولى قضاء البصرة فى سنة ٢٩٣، وابن أُسَيد الذى سمعها منه ، رحل من أصفهان إلى بغداد ، ومرَّ فى رحلته بالبصرة ، فسمع من أبى خليفة ، وذلك قبيل وفاة أبى خليفة سنة ٣٠٥، فبين هذين التاريخين قرأ على القاضى كتاب الطبقات . (٢٩٣- ٣٠٥) على أكثر تقدير .

والإسناد الثانى : رواية أبى القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى (٢٦٠- وتوفى سنة ٣٦٠) عن القاضى أبى خليفة أيضًا ، والطبرانىُّ نزل أصفهان واستوطنها ستين سنة إلى أن توفى ، وذلك فى سنة ٣٠٠. وإذن ، فهو قد قرأها على القاضى أبى خليفة ما بين سنة ٢٩٣ وسنة ٣٠٠.

والإسناد الثالث : رواية أبى طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن بجير الذهلى القاضى ، عن أبى خليفة . وأبو طاهر ولد سنة ٢٧٩ وتوفىَ سنة ٣٦٧ بمصر ، وانتقل إلى بغداد فى خلال ذلك وولى قضاءها سنة ٣٢٩. وظاهرٌ من تأخر ميلاده إلى سنة ٢٧٩، يدلُّ على[1] أنه قرأ على أبى خليفة هو أيضًا قبل سنة ٣٠٠ بقليل ، أى فى نفس الوقت الذى قرأها على الناس أبو خليفة ، وسمعها منه ابن أسيد والطبرانىُّ .

وفُقدانُنا روايةً عن كتاب الطبقات أو نقلًا عنه ، إلَّا من طريق أبى خليفة وحده ، ودِلالة الأسانيد الثلاثة السالفة الدالة على أن القاضى أبا خليفة قرأ الكتاب على الناس بالبصرة ما بين سنة ٢٩٥ وسنة ٣٠٠، يوقفنا على مثل اليقين بأن كتب ابن سلام الثلاثة ، وكتاب الطبقات خاصة ، لم يذع ذكرُه فى

---

(١) هكذا جاء بخط شيخنا ، ولعل الصواب إسقاط «يدلّ على» فيكون سياق الكلام : «وظاهرٌ من تأخر ميلاده .. أنه قرأ .. [محمود الطناحى] .

الناسِ إلا بعد وفاة ابن سلام سنة ٢٣١، بأكثر من خمس وستين سنة . ويزيدنى ثقةً بهذا الاستظهار أن أبَا الفرج الأصفهانى المولود بأصبهان سنة ٢٨٤ (وتوفى سنة ٣٥٦) والذى نشأ فيها ، ثم هاجر بعدُ إلى بغداد سمع بكتب ابن سلام ، فأرسل إلى القاضى أبى خليفة يستجيزُه ويسأله أن يرسلَ إليه نسخة من كُلّ كتابٍ من كتب ابن سلام ، فكتب إليه بها وأجازَهُ ، كما هو ظاهر من أسانيده فى كتاب الأغانى إلى كتاب الطبقات ، التى جمعتها فى مقدمة الكتاب . وأشبه باليقين أن يكون ذلك كانَ ، وأبو الفرج بأصبهان فى حدود السادسة عشرة من عمره سنة ٣٠٠ أيضًا ، أى قبل أن يعودَ ابن أُسيد إلى أصبهان بعد وفاة والده سنة ٣١٠، وقبل أن يستوطن الطبرانى أصبهان فى سنة ٣٠٠هـ ، وإلا لكان فى غِنًى عن الكتابة إلى أبى خليفة يستجيزه ولأخذ الكتاب عن أحدهما ، بلا مؤونة عليه فى ذلك .

وأنا أظنُّ ظنّا ، أن أبا خليفة كان قد لحق بخاله حتى رحل إلى بغداد سنة ٢٢٢، وبقى معه قليلا وهو يؤلف هذه الكتب ، وقرأها عليه ، ثم رحل عنها بعد وفاته سنة ٢٣١، وشُغِل بطلب العلم وروايته ، ثم عاد إلى البصرة لا يحملُ معه شيئًا من الكتب إلّا ما سمع من خاله لأنه كان ضريرًا كما قلت ، ولكنى لا أحقق هذا الظنَّ لأسباب كثيرة وبقيت كتب ابن سلام خالِه عند أهله ببغداد، ثم مضى دهرٌ طويلٌ جدًّا، فنقلت هذه الكتب إلى البصرةِ بعد ولاية أبى خليفة القضاءَ سنة ٢٩٣، وعندئذ قعد أبو خليفة للإقراء ، وأجلس قارئًا يقرأ كتب ابن سلام ، ولذلك جاء فى إسناد ابن أُسيد والطبرانى كليهما : « قرىء على القاضى أبى خليفة ، وأنا أسمعُ » ، فهذا أوَّل ذيوع خبر كتاب « طبقات فحول الشعراء » وغيره من كتب ابن سلام ما بين سنة ٢٩٥، إلى سنة ٣٠٠، حين نقلت كتبه من بغداد إلى البصرة ، والله أعلم ولكنى أستظهر .

أما متى أَلَّفَ ابن سلام كتبه هذه ؟ فنحن على يقين أنه لم يؤلفها فى صَدْر حياته ، ولا فى أوسطها ، ولكنه أَلفَّهَا بأَخَرة . ودليل ذلك أنّ أبا الطيب على بن عبد الواحد الحلبى اللغوى (المتوفى ٣٥١) حدثنا فى كتابه « مراتب النحويين » عن الحسين بن صالح ، عن أبى خليفة الفضل بن الحباب الجُمحىّ قال : كان

الرِّياشى (وهو العباس بن الفرج ، المتوفى سنة ٢٥٧) يختلف إلى أبى عبد الله (يعنى ابن سلام) ، ليستعير منه كتابه فى الطبقات ، فكنت أُخرج له منه جزءًا جزءًا . فقيل للرياشى فى ذلك فقال : لو عاشَ يومين لسمعته منه » . والرياشىُّ بصرىٌّ ، وابن سلام بَصْرى رحل عن البصرة سنة ٢٢٢ هـ ، إلى بغداد ، وكانت وفاته بها = فلو كان ابن سلام ألف الكتاب وإخوتَه ، وهو بالبصرة ، لعرف ذلك الرياشىُّ ، ولم يؤَجل ذلك إلى أن يصيرَ ابن سلام فى بغداد سنة ٢٣١ ، فيزوره ليأخذ منه جزءًا جزءًا . ونستظهر من هذا الخبر أيضًا أن ابن سلام كان قد فرغَ قبل قليل جدًّا من وفاته ، من تأليف هذه الكتب ، وأنه كان قد عزم على إقرائها للناس ، ولكن المنيّة فاتتهم به ، فلم يسمعوا منه شيئًا ، ولم يسمع منه سوى ابن أخته أبى خليفة وحده ، لأنه كان يومئذ معه ببغداد .

وبين أيدينَا خبرٌ آخر يدلُّ على أن ابن سلام كان فى آخر حياته ، قد أهمّه أمرُ شعر العرب وشعرائها وأخبارها ؛ وأنه رأى أنّه قد قضى عُمره كُلَّه فى السماع من العلماء على اختلاف علومهم ، من نحو ولغة وشعر وحديث وأخبار ، حتَّى بلغ إمامة العلم فى بعض ذلك ، وأخذ الناس عنه فأكثروا وأكثر ، حتى بلغ الثانية والثمانين من عمره ، وبداَ لهُ أن يرحَل إلى بغداد ، كما رحل كثير من علماء البصرة ، فيحدثنا الخطيب البغدادى ، عن الحسين بن فهم ، (وهو صاحب محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وصاحب الطبقات الكبير) (ولد الحسين بن فهم سنة ٢١١ ، وتوفى سنة ٢٨٩) ، وهو أيضًا أحد أصحاب ابن سلام والرواة عنه) ، فيقول الحسين بن فهم : « قدم علينا (أى قدم عليهم بغداد) سنة اثنتين وعشرين ومئتين ، فاعتَلَّ علةً شديدةً ، فما تخلَّف عنه أحدٌ ، وأهدى إليه الأجلّاءُ أطبَّاءَهم ، وكان ابن ماسَوَيْه الطبيب ممَن أهدى إليه (يوحنا بن ماسويه طبيب الخلفاء ، وكان يومئذ طبيب المعتصم ، توفى سنة ٢٤٣) ، فلما جسَّهُ ونظر إليه قال : ما أرى من العلَّة كما أرى من الجزع !! فقال ابن سلام : والله ما ذاك لحرصٍ على الدنيا مع اثنتين وثمانين سنة ، ولكنّ الإنسان فى غَفْلَةٍ حتى يُوقَظَ بعلَّةٍ . ولو وقفت بعرفاتٍ وقفة ، وزرتُ قبر رسول الله ﷺ زورة ، وقَضَيتُ أشياء فى نَفْسِى ، لرأيتَ ما اشتدَّ علىّ من هذا قد

سَهُل . فقال له ابن ماسويه : فلا تجزع ، فقد رأيتُ فى عِرْقك من الحرارة الغريزيّة وقُوّتِها ، ما إن سَلَّمك الله من العوارض ، بلّغك عشر سنين أخرى ، قال الحسين بن فهم : فوافق كلامُه قدَرًا ، فعاش محمد بن سلام عشر سنين بعد ذلك ، ومات سنة اثنتين وثلاثين ومئتين » .

فقول ابن سلام رحمه الله : « ولكن الإنسان فى غفلةٍ حتى يُوقَظَ بعلة » ، وقوله : « لو وقفت بعرفات وقفة ، وزرت قبر رسول الله ﷺ زورةً ، وقضيت أشياءَ فى نفسى ، لرأيتَ ما اشتَدَّ علىّ من هذا قد سَهُل » ، يدلُّ على أنّ هذه العلة الشديدة قد أهبَّتْهُ من غفلة عن أشياء كانت فى نفسه ، ويتمنَّى أن يكتب الله له لو أن يقف حيث يُسْتَجاب الدعاءُ ، فيسأل ربّه أن ييسِّر له قضاءَها والفُروغَ منها وتقرَّ عينُه ، فلا يأخذه من أمر هذه الدنيا جَزَع . وأكبر ظنى أن هذه الأشياء التى كان يتمنَّى قضاءها هى تأليف كُتُبٍ جامعة ، كان يحبُّ أن يتعجَّل كتابتها ، بعد أن قضى اثنتين وثمانين سنة لم يؤلف كتابًا ، ولا يبقى من علمه عند الناس إلّا الشىء من الأحاديث التى أُثرت عنه ، والأخبارُ سماعًا ورواية . والكتابةُ قيد العلم ووعاؤه . فلمّا أَبَلَّ من علته قليلًا أجمع رأيَه على أن يعدّ منهجه لكتبه التى كان يحبُّ أن يؤلفها ، بعد دهر طويلٍ جدًّا من انتيابِ خواطر تُلِمُّ ساعات ثم تذهبُ غير محقَّقةٍ ولا مثبتة فى كتابٍ . ففى المدّة التى قضاها بين سنة ٢٢٢ هـ وسنة ٢٣١، بدأ كتابه فى الشعر ، وهو كتاب الطبقات ، ثم كتاب شعراء الفرسان ، ثم كتاب سادات العرب وأشرافها وما قالوا من شعر ، ثم كتاب أيام العرب ، وغير ذلك مما وصل إلينا خبرٌ عنه أولم يصل . ثم اخترمتْهُ المَنيّة هو وأخوه المحدّث المشهور « عبد الرحمن بن سلّام الجمحىّ » سنة ٢٣١، وبقى كُل ما كتبه من كتبٍ عند أهله ببغداد ، حتى رحلوا إلى البصرة عائدين ، أو حتى حملوها إلى ابن أخته أبى خليفة قاضى البصرة ، فآلت إليه وصارت فى حوزته ، فيما أرجح ، بعد توليه قضاء البصرة فى سنة ٢٩٣هـ . والله أعلم أىّ ذلك كان ؟ وعرفها الناس من يومئذٍ .

بَقِى أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى بالبصرة ، عُمْرًا طويلًا حتى بلغ الثانية والثمانين من عمره ، وصارت إليه إمامة الأدب والرواية والعلم وأخبار

العرب ، إلى فنون أُخرَى كان يُحْسِنها ويَرْويها ويأخذها الناسُ عنه ، أجيالًا بعد أجيال من العلماء والأدباء ، لأنه كان من قدماء أهل العلم والرواية ، وطارت شهرتُه فى الآفاق ، ثم بدا له أن يرحل من البصرة إلى بغداد ، كما رحل كثير من علماء البصرة مِن قبله ، فرحل فى سنة ٢٢٢ هـ ، فلمّا نزل بغداد لقى الحفاوة كلها من الخليفة المعتصم ، ومن علماء الناسِ صغيرهم وكبيرهم ، ومن الأشرَاف والسادات ، وقصَده طُلّاب العلم والرواية فى كُلِّ فنٍّ ، وداروا به وسألوه وسمعوا منه . ولقد أَلِفَ ابن سلام الشيخ مثل هذه الحفاوة وهو بدار نشأته فى البصرة ، أما فى بغداد ، وهو حديثُ عَهْدٍ باغتراب عن وطنه دار نشأته ، فإن هذه الحفاوة قد هَزَّته وأسْعَدَتْه ، وأشعرت قلبه لذّة الفَرَح بما لَقِى من إكرامٍ وإلطافٍ ، ولما يَكَدْ حتى بَطَشتْ به علةٌ شديدةٌ شرَّدت ما وجده فى نفسه من السعادة بهذه الحفاوة ، وجزِعَ مَنْ حوله من أهله ومن طلبة العلم مخافةً عليه لعلوّ سنه ، وجزعَ هو ، ورأى أن ما انفسح له من الأمَلِ الذى أمَّله بالرّحلة إلى بغداد ، دار العلم يومئذ ، قد ضاقَ ، فلمّا مضَتْ عنه شدة العلَّة واطمأن قلبُه قليلًا ، وعاده أهل العلم والرواية يحفُّونَ به ويسألونه ، وعاودَه أملٌ تقادَمَ عَهْدُه أن يؤلف للناسِ كتبًا تبقى فى أيديهم من بعده . وأوّل كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، دالٌّ على أن الذى وصفت ، أو قريبًا منه ، قد كان كما وصفتُ ، فإنه بدأ الكتاب هكذا : « ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ... » ، فكأنَّ أهل العلم يومئذ قد ذاكروه وذاكرهم ، ولعلَّه أفضى إليهم بما فى نفسه كما قال فى حديثه مع ابن ماسويه الطبيب « وقضيت أشياء فى نفسى » ، يعنى تأليف كتب تبقى فى أيدى الناس ، فسأله أصحابه من أهل العلم أن يفعل فاستجابَ لهُمْ . وكانت العلة الموقظة بعدَ الثانية والثمانين ، حافزًا له على العجلة فى قضاء ما فى نفسه ، وفى الوفاء بما وَعَد . ولكن يظهر أن هذه العلَّة قد تراخت به ، تنتابه زمنًا بعد زمن ، توشك أن تقطعه عن قضاء ذلك ، وبدأ يكتبُ كتبه بأخَرةٍ ، وهو يسابقُ الأيام مخافةَ أن تسبقه ، غير مُغْترٍّ بمقالة ابن ماسويه الطبيب : « قد رأيتُ فى عرقك من الحرارة

الغريزية وقُـوَّتها ، ما إن سلّـمك الله من العوارض ، بلّغك عشر سنين أخرى » ، وكيف يغترُّ ، وأخواتُ الثمانين أشدُّ إيقاظًا من الغفلة من بطش هذه العلة ؟ ولكن يظهرُ أن العلّة كانت تنتابُه وتقطعُه ، فلم يستطع أن يفرغَ من تأليف كتبه ، إلّا وقد دنا الأجلُ من وراء الحجب يشقُّـها إليه ، ففرغَ ولَمَّا يَكَدْ ، لما دلنا على ذلك خبر أبى خليفة عن الرياشيِّ حيث قال : « لو عاش يومين لسمعتُـه منه » ، يعنى كتاب الطبقات ، كما سلف .

وهذه العجلة التى استظهرتُـها ووصفتُـها بيِّنَةٌ فى مواضع من كتابه « طبقات فحول الشعراء » التى سلمت وبقيت في أيدينا من كتبه ، فقد وجدتُ فيه أشياء قد سقطت عَنْه أو منه ، وهو فى هذه العجلة من أمره ، وأنه فى هذه العجلة من أمره زاد أشياء لا ذكر لها فى عرض كتابه ، ومثال ذلك : أن ابن سلّام فى رسالة كتابه قال : « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرًا ، فألَّفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهطٍ كُـلُّ طبقة متكافئين معتدلين » ، يعنى عشر طبقات من أهل الجاهلية ، وعشر طبقات من أهل الإِسلام . فهؤلاء ثمانُون شاعرًا . هذا ما قصده ابن سلام حين بدأ كتابَـه ، ولكنه لم يَكَدْ يفرُغ من أمر شعراء الجاهلية ، حتى بدا له أن يقحم بين الأربعين من شعراء الجاهلية ، والأربعين من شعراء الإِسلام ، طبقات أخرى لم يذكرها فى عرض كتابه ، كما حدّده حين بدأ تأليف كتابه ، فقال فى آخر طبقات الجاهلية : « انقضى خبر الطبقات العشر » . وكان حق ما حدّده أن يقول بعده :

« طبقات الإِسلام : كل طبقة أربعة رهط متكافئين معتدلين = الطبقة الأولى » كما هو نص عنوانه فى أول طبقات الإسلام ، ولكنه لم يفعل ذلك ، فإنه حين فرغ من الجاهلية فقال : « انقضى خبر العَشْر الطبقات » ، اخترم سياق كتابه كما عرضه فابتدأ قائلًا :

« وصيَّرنا أصحاب المراثى طبقةً بعد العشر الطبقات » ومضى فى ذكر أصحاب المراثى .

فأتى بجديد ، ثم مضى غير مبالٍ باقتحام هذا الموضع فيما حدّده فى أول

كتابه ، فابتدأ فى ذكر « شعراء القرى العربية » ، فذكر شعراء المدينة ، ثم شعراء مكة ، ثم شعراء الطائف ، ثم شعراء البحرين ، ثم شعراء يهود ، وانتهى هذا الاقتحام ، وبدأ فى تمام ما كان حدّده فى رسالة كتابه . وهذا فى ترقيم نسختنا من رقم : ٢٦٧ إلى آخر رقم : ٣٨٦ (ص ٢٠٣- ٢٩٦) وهو استطرادٌ طويل كما ترى ، وسار فيه على غير نهجه فى جعل كُلِّ طبقة أربعة شعراء ، فجعل « طبقة أصحاب المرائى » ، أربعة ، وشعراءِ المدينة خمسة ، وشعراء مكة تسعة ، وشعراء الطائف خمسة ، وشعراء البحرين ثلاثة ، وشعراء يهود ثمانية ، فهؤلاء أربعة وثلاثون شاعرًا ، زادهم على الثمانين ، على ما رسمه وبيّنه فى أول كتابه .

ومع ذلك ، ففى هذا الاستطراد المقحم على نهج الكتاب ، إخلالٌ شديدٌ بطريقته التى سار عليها فى ذكر طبقات شعراء الجاهلية الأربعين ، وطبقات شعراء الإِسلام الأربعين ، من وجوه كثيرة سوى عدد الشعراء الأربعة فى كل طبقة ذكرها . وهذا عندى دالٌّ على أن ابن سلام رحمه الله قد أقحم هذا القدر كُلَّه من الشعراء ، بعد أن فرغَ من النسخة الأولى من كتابه ، والتى كانت مقصورة على ما نهجَه فى رسالة كتابه ، من ذكر طبقات عشر لفحول الجاهلية ، وطبقات عشر لفحول الإِسلام .فلما عادَ إلى كتابة الكتاب على الوجه الذى بيَّنه أقْحم هؤلاء الشعراء إقحامًا فى النسخة الآخرة (وهى التى فى أيدينا اليوم) ونسىَ أن يُغَيِّر ما كتبه فى رسالة كتابه ، وكان قد أسنَّ وقارب التسعين أو جاوزها ، وأقحم أشياء أخرى سنعود إلى ذكرها بعد قليلٍ . ومِمّا يدلُّ على أنه كان ينسى ، وأن المرض كانَ يقطع عليه ما يكتب أنّه فى هذا الجزء الذى أقحمه ، لم يقتصر على تغيير منهجه فى ذكر أربعة شعراء فى كُلِّ طبقة ، فزاد العدد أو نقصه ، ليس هذا فحسب ، بل إنه وقع فى شىء آخر يدلُّ على أثر المرضِ فى تقديره وضبطه ، كان ملتزمًا بأن يذكر فى أول كُلِّ طبقة أسماء شعراء هذه الطبقة الأربعة ، فكان هنا فى هذا الجزء المقحم ملتزمًا أيضًا بذكر أسماء شعراء كُلِّ قسم فى أوّل كلامه ، فذكر فى شعراء مكة تسعةً ، نسى أن يذكر لاثنين منهما بعد ذلك خبرًا أو شعرًا، وهما مسافر بن أبى عمرو، والممزق

عبد الله بن حذافة السهمى ، مع خطأ غريب فى اسمه ، ذكرته فى تعليقى على الكتاب = ثم فى شعراء الطائف ذكر خمسة شعراء ، ولكنه سقط عنه كنانة بن عبد ياليل ، فلم يذكر له بعد ذلك أيضًا خبرًا ولا شعرًا ، هذا مع قلة الأخبار عن كل شاعر منهم ذكره ، وقلة ما ذكر له من الشعر ، فإنه كان خليقًا أن لا ينسى إذنْ . فمن أجل ذلك كله رأيت أن ابن سلام كان يومئذ قد بلغ منه السن ، وعوَّقَه المرضُ وأنساهُ ، وأنه أدخل هذا القسم وأقحمه فى موضعه بين الجاهليين والإسلاميين ، لأنّه كانَ فى عجلةٍ من أمره ، وهو يعيد كتابة النسخة الثانية من كتابه هذا (فى آخر عمره)، أى حين رجع إلى كتابة رسالة الكتاب) .

فمن أجل ذلك أستطيع الآن أن أقول ، وأنا مطمئنٌّ كل الاطمئنان : أنّ صنيع ابن سلامٍ حين انتهى من الفقرة الثانية من كتابه في أصله الأول من نسخته الأولى ، فقال ... « فبدأنا بالشعر » كان كلامه متّصلًا بالفقرة الحادية والثلاثين حيث يقول : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلَهُمْ ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حُجَّةٍ ، وما قال فيه العلماء ...» . فلما أعاد كتابة هذا فى النسخة الثانية ، بدا له على عجلٍ أن يقحم فى كلامه هنا خاطرًا جديدًا فى الحديث عن « المصنوع المفتعل الموضوع » ، ففصل بين الكلامين المتعانقين تعانقًا تامًا ، بما أثبته من أوّل الفقرة الثالثة ، إلى آخر الفقرة الثلاثين ، وجعل هذا الاستطراد المقحم قسمين : أولهما عن «المصنوع» من الفقرة الثالثة إلى الفقرة الثالثة عشرة ، وثانيهما عن أهل العلم والرواية الصحيحة من العلماء، من الفقرة الرابعة عشرة إلى آخر الفقرة الثلاثين. وهذا الإقحامُ الجديدُ على رُقْعة الكتاب ، والإقحام الذى قبله ، ربَّما زادَاه بهاءً وحُسْنًا ، ولكنّهما على كُلِّ حال أحْدَثا فى نَسْجِه بعض الاضطراب ، ولكنه اضطرابٌ غير مَعِيب ، إلّا فى مطلع الفقرة الثالثة، الذى قذف بنا فى حَيْرَة غريبةٍ جدًا ، كما رأيت آنفًا من قريبٍ .

والآن ، وقد فرغنا من إعادة النظر فى بناء كتاب ابن سلام « طبقات فحول الشعراء » ، يكاد يكون من المقطوع به عندى أنّ ابن سلامٍ حين عاد إلى كتابة

نسخته الأخيرة ، وهى التى بين أيدينا اليوم ، قد أقحم على أصلها الأوّل زياداتٍ لم تكن فى سياق منهج الكتاب ، وأنه كتب هذه الزيادات بأَخَرَةٍ قبيل وفاته ، وأنّ بلوغهُ التسعينَ مع نوبَة العِلَّة مرة بعد مرة ، قد جعلاه على عجلٍ من أمره فى إقحامها إقحامًا يفصِلُ فصْلًا ظاهرًا بيِّنًا بين كلامين كانا فى أصله الأوّل متتابعين متصلين . وإذنْ ، فلا غرابة فى أن يكون هذا الإقحام العجِلُ عند إعادة الكتابة ، ممّا يحدثُ اضطرابًا وخلَلًا فى سياق حديثه على وجهه الذى كان أثبته أوّلًا ، وكان ينبغى أن يظَلَّ عليه ، لولا أنْ عَجِل مع الخاطر الملحّ عليه إلحاحًا حَمَله على إثباته ، ومع العجلة الزلل ومع الزلَل تفلُّت الروابط واضطرابها ، ومع التفلُّت الخَطأ ، وإذا نحنُ فى تيه متراكبة ظُلُماته نقول : « سواءٌ بصيرات العيون وعُورها » من شدة الحيرة ومخافة الضلال ! وإذا كُنْت قد اتهمتُ ابن سلام بالخطأ فى عبارته ، فلم أتَّهمه إلّا ومعى حُجَّتى ، ولم أقدمْ على ذلك إلّا ومعى عُذْرُه ، ولاَ أواجهُه إلا ومعى اعتذارى إليه ، فإنّه إمامٌ من أئمتِنا ، ونحنُ عيالٌ عليه ، مقرُّون بفضله وعلمه وتقدمه وجلالته وسناء مرتبته .

ويعجبنى حديث أبى بكر بن دريدٍ قال : « أخبرنا عمرو أخو هلال الرأى ، قال: جاءَ رجُلٌ إلى أبى زيد الأنصاريّ، فسأله عن مسألةٍ من النحو فأجابه ، فقال الرجل : إن سيبويه لا يرضى بهذا ! فقال أبو زيد : اسكت ياصبىٌّ ، لقد جلستُ هذا المجلس قبل أن يُولَد سيبويه بثلاثين سنة!» ، فعلَّق على هذا الخبر أبو أحمد العسكرى، (الحسن بن عبد الله بن سعيد/٢٩٣-٣٨٢هـ) فقال: « وهذا جوابٌ غير مرضيٍّ، وكان يجب أن يتصرَّف مع الحجَّة لا مع كِبَرِ السنّ » ، وصدق أبو أحمد ، ونعْم ما قال . ونحن بحمد الله ، نتصرَّفُ مع الحجة، لا مع هَيْبة أبى عبد الله بن سلام وجلالة قَدْره، معترفين له بالسبْق والإمامة والإحسان كُلَّ الإحسان فيما بقى لنا من علمه، وليس يعيبه أن يَستدرك عليه من لا يلحق بغباره رحمه الله، وغفر لنا وله .

* * *

بقى بعد هذا أن نلتمس السبب الذى من أجله استحسن ابن سلّامٍ أن

يقحم بين قوله : « فبدأنا بالشعر » وبين صلة كلامه فى أصله الأول : « ففصَّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام ...» إلى آخر كلامه ، فهتك من أجل ذلك حَبْل الفاءِ العاطفة المعقِّبة فى « ففصَّلنا ...» ، وبتكه بَتْكًا ، ثم وضعه بعد الفقرة الثلاثين غريبًا عنها ، وبقيت الفاء بلا معنًى ، لأن قبلها مباشرة : « وكان الأصمعى وأبو عبيدة من أهل العلم ، وأعلمُ من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبى الكوفىّ ، ففصلنا الشعراء ...» . فأىّ خاطرٍ كان يجولُ فى نَفْسِه ، أثَارَه وهَاجَهُ وأغراه بأن لا يبالى بسياق كلامه ، وحمله ، وهو يكتب النسخة الثانية ، أن يقحم بين الفقرة الثانية والفقرة الحادية والثلاثين ، ثمانية وعشرين فقرةً ، إقحامَ متعجل لا يكادُ يصبر ؟ .

والإجابة على هذا السؤال تتطلّب بيانًا لابُدَّ منه . وأخشى أن يكون ترك الإبانة عنه ، ممّا يجعلُ الحديثَ عنه غير مقنع ولا واضح ، لأنّ هذا أمرٌ يتعلَّقُ بالسرائر المضمرة فى النفس ، لا بالكلام المسطور فى الصحف . وقد وجدتهُ ، بعد الفحص ، محالًا أن ألتمسه فى صحف هذا الكتاب . وسأوجزه إيجازًا شديدًا .

الذى لا أشُكُّ فيه ، ولا يشُكُّ فيه أحد ممّن تقدّمَنا ، أن أبا عبد الله بن سلّامٍ كان حَفِيًّا كلَّ الحفاوة بشعر العرب وأخبارها وأيامها فى الجاهلية والإسلام . وكان أبوه « سلّام بن عبد الله بن سالم الجمحى ، مولى قدامة بن مظعونٍ الجمحى » ، هو أيضًا حفيًّا بالشعر والشعراء وأخبارهم ، كما يدلُّ على ذلك ما رواه عنه ابنه « محمد ابن سلام » فى كتاب الطبقات ، فقد لقى سَلَّام ذا الرمة (رقم : ٧٦٤) ، فحرص بعد ذلك على أن يلقى « خرقاء »فى ديار « بنى عامر بن ربيعة » ، وهى التى كان يشبّب بها ذو الرمة ، وقال سلام « دخلتُ على خرقاء ، فقالت : اخرجى يا فاطمة – تعنى ابنتها ، فخرجتِ امرأةٌ جميلة ، وليست كأمّها . و« خرقاء » التى كانت تقول : « أنا من مناسك الحج » لقول ذى الرمة :

تَـمَامُ الحجّ أن تقف المَطَايا على خرقاءَ واضعة اللثامِ

ونشأ ابن سلامٍ مع أبيه، فأخذ عنه، وغَرِى بالشعر والشعراء وأخبارهم، وكان ابن سلام يكثِّر سؤاله عمَّا يَسْمع من أخبارهم، كما تدلُّ على ذلك روايته عنه فى كتابه. (ولم أجد لأبيه سلام، ذكرًا ولا خبرًا ولا رواية فى غير كتاب الطبقات). فمنذ عقل محمد بن سلام فى نحو سنة ١٥٠ من الهجرة إلى أن بلغَ أقصى العُمُر وطعن فى الثانية والتسعين، ظَلَّ متقصِّيًا للشعر والشعراء، فلقى الأئمة الكبار من علماء الأمة، من أهل العلم والرواية الصحيحة، وصحبهم دهرًا طويلًا، حتى انتهت إليه الإمامةُ بعد ذهاب الأئمة القدماء، فقصده الناسُ من الأقطار، يأخذون عنه، ويعرضون عليه، ويسألونه عما أشكل عليهم من الشعر والأخبار وعلم العربية والحديث، وغيرها مما كان عنده فى وعائه. ويدلُّ كتابهُ هذا، على أنه لم يقض عمره باطلًا، ولم يقطعْه غفلة عمّا كان يدورُ فى مجالس العلم والعلماء فى زمانه، ولا قصَّر فى الاطّلاع على ما كتب العلماء والرواة قبل مولده، وفى مدة حياته.

والعصر الذى عاش فيه ابن سلّام كان عَصْرًا زاخرًا يُعبُّ عُبابُه، لا فى دار الخلافة وحدَها، بغداد، ولا فى سائر مدنها الكبار كالكوفة والبصرة التى عاش فيها اثنتين وثمانين سنة، بل فى كُلِّ أرجاء الأرض التى أظلتها كلمة لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، ﷺ. من أقصى الأندلسِ والمغرب، إلى تخوم الصين، فى كل مدينة وربَض وبادية. ولو ذهبتُ أصف ما كان كيف كانَ، لما وسعتْه الأسفار الكبار، فكيف السبيل إلى ذلك فى سطورٍ لا تزيد فى سِفْرٍ صغيرٍ ولا تنقُص. إنه أروعُ عَصْرٍ مرَّ فى تاريخ حضارات هذا العالم، منذ تركَ الإنسانُ وسمَه على الأرض فى حضارة متكاملة، وحسبك أن تعلم أنها الحضارة الأولى فى تاريخ البشر، التى ما كادت تعرف صناعة الورق، حتى أخذتها بقُوةٍ، وأحدثت بها فتحًا جديدًا للإنسان، ونقلتها من صناعة مقصورة على المهارق والصكوك والسِّجلّات والطوامير، التى كانت تراد لأعمال الدولة ودواوينها أكثر ما تُراد، وأقلُّه كتابة الكتب الكبار والأسفار المتعددة الجلود، بل كان

أكثره يلفُّ فى الأضابير - نقلت هذه الصناعة إلى صناعة أخرى جديدة استحدثتها، هى صناعة ورق الصحف التى تطوى كراريس كراريس، وتجمع فى جلدٍ واحدٍ يصونُها، جدّد أسلافنا يومئذ أساليب هذه الصناعة، حتى صارت قادرة على كثرة الإنتاج، وحتى صارت كُلّ مدينة فما دونها لا تكادُ تخلو من صناعته، ولا من صناعة المداد، وصار الورق من يومئذ مبذولًا للصغار والكبار، وفى أيدى الرجال والنساءِ. ولم يسمَع الزمنُ من صرير الأقلام على وجوه الصُّحف، وفى نواحى الأرض المتباعدة المتقاذفة، وعلى تطاول الدهور = ما سمع من صريرها منذ خرج الورق على يد العرب من أسْر الدواوين وكُتّابها إلى أيدى الصغار والكبار من جماهير الناس وطلبة العلم، ولم ير الزمن أيضًا مدادًا يراقُ على الطروس، كما رآه فى زمانهم هذا. ويقينى أنه لولا نزول القرآن على رسول الله ﷺ، ولولاَ ما أوتيه ﷺ من الحكمة وجوامع الكلم، وأنه كان كما قال ﷺ «أوتيت القرآن ومِثْلَهُ معه»، وهو حديثه ﷺ، ثم لولا فتوى أبى بكرٍ رضى الله عنه بكتابة المصحف = لبقى عالمنا هذا إلى يومنا هذا محبوسًا أكثر ورقه فى المهارق المطوية فى الأضابير بين جدران الدواوين وبيوت الدولة، وأقَلُّه فى كتابة الكتب. فهذا فضْلٌ واحدٌ لا غير، من فضل أمةٍ كانت فى سابق علمه سبحانه وتعالى، كما قال لهم فى كتابه: «كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس».

لم أملك أن أكبح جِماحَ هذا القلم، فإنّه عصْرٌ يذهلنى، كُلّما جاء ذكرُه فى نفسى، عما كنت فيه، والذى كنت فيه هو الفحصُ عن الخاطِر الذى استولى على ابن سلامٍ، فأثاره وهاجه وأغراه أن لا يبالى بسياق كلامه، وهو يكتب النسخة الثانية من كتابه، فأقحم ما أقحم متعَجِّلًا قليل الصبر، كيف جاء؟ وكيف استولى عليه؟.

وأعود مرة أخرى أقول: إن الإجابة عن هذا السؤالِ تكاد تكون ضربًا من استشفافِ السرائر المطوية المستقرة فى أغوار الضمائر، بلا دليل يهدى، وما هو إلّا كتابٌ مكتوبٌ! أمّا ابن سلّامٍ فقد مضَى لطِيّته، وطوتْهُ الدهور الطِوَالُ فى

متظاهر أكفانها فلا علم لأحدٍ بسرائر الماضِين على حقيقتها ، فإنَّ علمها عند علّام الغيوب ، وكُلُّ ما فى أيدينا أن نستدِلَّ بالخبر الشاهدِ على خبرٍ غائب ، ولكن رُبَّ استدلالٍ وافق صوابًا خفيًّا ، ولولاه لبطل علمٌ كثير . بل إن كل بحث فى الأدب والتاريخ وغيرهما من علومنا ، لا يكادُ يقوم إلّا على هذا الاستدلال وحدَه ، وإن كان السبيلُ إليه محفوفًا بالعواثير المهلكة ، والمتالف المرهوبة . ولذلك ينبغى أن نحذر كلَّ الحذر ، فإن الخطأ فيه أكثرُ من الصوابِ ، لمن لم يملك حسًّا مرهفًا نافذًا يتلَقَّى نبض اللغة وألفاظها بالجَسِّ والتقليب ، جسِّ الطبيب مواطِنَ البَدَن الدَّالة على مكان العلّة من العليل . والبحث فى مأثور الآداب ، وفى أخبار التاريخ ، وفى مسطور الكُتُب ورسائل الكتاب ، وفى روائع الشعر ، لم يكن قطُّ إلّا بحثًا متواصلًا فى سرائر أغلقت عليها صدور أصحابها أو قائليها أو كاتبيها ، أو طُويت معهم طيًّا ، وذهبت حيث ذهبوا ، بلا أَمَل لأحد بعد ذهاب أشباحِهم فى لقاءٍ أو سماع أو سؤال .

ومذهبى أنّ هذا الاستدلالَ قائم أساسه على «التذوّق » ، وقد قلتُ قديمًا فى بعض ما كتبتُ : « كلُّ حضارة بالغة تفقدُ دِقَّة التذوُّق ، تفقد معها أسباب بقائها . والتذوّق ليس قوامًا للآداب والفنون وحدها ، بل هو قوامٌ لكل علمٍ وصناعة ، على اختلاف بابات ذلك كُلِّه وتبايُن أنواعه وضروبه . وكلُّ حضارة نامية تريدُ أن تفرض وجُودها ، وتبلُغ تمامَ تكوينها ، إذا لم تستقِلَّ بتذوّقٍ حسَّاسٍ نافذٍ تختَصُّ به وتنفردُ ، لم يكن لإِرادتها فى فرض وجودهَا معنًى يُعقل ، بل تكادُ هذه الإِرادة أن تكون ضربًا من التوهم والأحلام لا خير فيه ، فحُسْن التذوق ، يعنى سلامة العقل والنفس والقلب من الآفات ، فهو لبُّ الحضارة وقوامها ، لأنه أيضًا قِوامُ الإِنسان العاقل المدرك الذى تقومُ به الحضارة » .

ونحنُ ، أصحابَ هذا اللسان العربىّ المُبين ، قد قام أصلُ حضارتنا على التذوُّق ، فى الجاهلية الغابرة ، وفى الإِسلام الباقى بحمد الله وحده ، وبلغ التذوّقُ بنا مبلغًا سَنيًّا فريدًا ، وحين بَدَأ تشتُّته وتبعثُره بدأ معهما التَّدهْور

والإدبار . فواجبنا اليوم أن نُعيد بناءَ أنفُسنا على مَا بُنِيتْ عليه حضارتنا من دقة « التذوق » ، وأن يكون التذوق أساسَ عملنا الأدبىّ فى آثار أسلافنا ، وأن نُلاقِى كلمات أخبارهم التى أُثرت عَنْهُم بالفحص النافذ ، وأن ننفُضَ غَيْبَ كلماتهم بالتذوُّق ، ونتوسَّم بالتفرُّس فى معاطفها ، ثُمَّ نستجليها ونسألها ونستخبرُها عن هذه السرائر المغيَّبة المحجوبة فى طواياها ، وإلا يكنْ هذا حقًّا محضًا ، فحدثْنى إذن ، كيف يمكن أن يقع التمييز بين شعر امرىء القيس ، وشعر طرفة ، وشعر زهير ، وشعر النابغة ، وشعر أبى تمام ، وشعر البحترىّ ، ومن شئت من الشعراء ؟ كيف كان ممكنًا ذلك التمييز فى مدّة حياتهم ، وكيف يكون ممكنًا بعد مماتهم ، إلّا بهذا العمل الدائب فى ممارسة الكلمات ، واستنباط الخفىِّ من أسرارها ، وتذوُّقِ أساليبها ، وتسمُّعِ الرِّكز الخفىّ فى جَرْسها ونبرها ، ثم تولُّجُ الحسِّ إلى كُنْهِ كُلِّ حرفٍ فى بنائها وتركيبها ، بلمحٍ متيقظٍ مُتَلقّط بصير ، حتى تنشأ فى النفس صورةٌ واضحةٌ لكُل منهم يَبين بها من سواه . وحتى يتردّدَ فى السَّمع صَدًى متميّزٌ يُعْرفُ به صوت أحدِهم من صوت صاحبه ؟ وإذا بلغ التذوّق هذا المبلغ ، لم يكد المرء بعد ذلك يخطىء الصورة البيّنة الملامح ، ولا يكاد يستنكر الصوت المتفرِّد بترجيعه ونَغْمته . وإذا قرأتَ شعر أحدهم وجدت صاحبه بعد ذلك حيًّا يروح ويَغْدو فى جميع أحواله ، على ضروبٍ من الهيئة تعرفها النفسُ معرفة التبيُّن والتمييز . وكُلّ بحث أدبىٍّ أو تاريخى ، سوف يكون عندئذٍ استحياءً لأشباح مضتْ ، من رسوم كلمات بقيتْ . وسرّ هذا كامن فى التذوّق ، وفى تذوّق الكلمات خاصة .

وسأضرب مثلين من أمثلة كثيرة ، يدلان على أَنَّ هذا كان كائنًا عند أسلافنا ، أحدُهما جليل القدر ، والآخر أجلُّ وأعظم .

أما الأوّل فإن ذا الرمة الشاعر ، كان قد نشِب الهجاء بينه وبين هشام المَرَئى ، وكاد هشامٌ يُغَلَّبُ عليه ، حتى لقى يومًا جريرًا ، فاستنشدهُ هجاءَهُ

هشامًا ، فأنشده رائيته فى هجائه ، فلما فرغ من إنشاده قال له جرير : ما صنعتَ شيئًا ! أأرْفِدُك ؟ قال ذو الرمة : نعم ، فأرفدهُ ثلاثة أبيات ختم بها قصيدته ، وهى :

يعُدُّ الناسبونَ بنى تميمٍ بُيوتَ المَجْد أربعةً كِبارَا
يعدُّون الرِّبابَ وآل سعدٍ وعمرًا ، ثم حنظلة الخيارَا
ويَهْلِكُ بينها المَرَئىُّ لَغْوًا كما أَلْغَيْتَ فى الدِّيَةِ الحُوَارا

فغلبه يومئذ ذو الرمة بهذه الثلاثة الأبيات ... ثم مرَّ ذو الرُّمة بعدُ بالفرزدق ، فقال له : أنشدني أحدثَ ما قلتَ فى المرئىِّ ، فأنشدهُ هذه القصيدة ، فلمَّا بلغ آخر الأبيات الثلاثة فى ختامها ، أطرق الفرزدق ساعةً ، ثم قال له : أعدْ فأعاد ، فقال له : كذبتَ وَأيْمُ الله! ما هذا لك! ولقد قالها أشدُّ لَحْيَين منك ! ما هذا إلا شعرُ ابْن الأتانِ ! (يعنى جريرًا) .

فبهذا التذوّق النافِذ وحده ، استطاع الفرزدق أن يلمَح جريرًا بهيئته وصورته وصوته من وراء هذه الكلمات القلائل .

أما ثانى المثلين ، فهو أروعُ وأنفذ ، فإن الله سُبْحانه حين ابتعث نبيه ﷺ ، لم يجعل للناس دليلًا على صدق نبوته يطالبهُم بالإيمان به ، سوى ما نُزّل عليه من القرآن منجّمًا على ثلاثٍ وعشرين سنة . وطالب عبادَهُ من عرب الجاهلية أن يتبيَّنوا أنّ ما نُزِّل إليه هو كلامُ الله المفارق لكلام البَشَر على اختلاف ألسنتهم ، وذلك بمجرَّد سماعه يُتْلَى عليهم فى آياتٍ قلائل فى أوّل العهد بالإسلام ، وفوّض إليهم أن يحكُمُوا على قليله منذ بُعِث ، بأنه وحْى أوحاه الله لا يُطيق أن يأتى بمثله لا محمد ﷺ ، ولا غيرُه من البشر . ولا سبيل لأحدٍ إلّا عن طريق التذوّق الذى وصفناه لا غير ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : «ما من نبِىٍّ إلّا أوتى من الآيات ما مثْلُهُ آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحِى إلىَّ ، فأرجُو أن أكون أكثرهُمْ تابعًا يوم القيامة » ، أى أنَّ الآية التى يفوّضُ أمرها إلى التذوّق القائم فى طبيعة البشر ، أبقى من الآية التى تنقضى بانقضاء حدوثها ، ولا يبقى للبشر بعدها إلا التسليم بحدوثها لا غير ، كعصى موسى

وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . ولكن ليس هذا موضع المثل الذى أردته ، ورأيى فى معنى قولنا «إعجاز القرآن» معروف فيما أظنّ . أمّا المثل الذى أردتُه ، فهو أبلغ وأنفذُ فى عمل «التذوق» لا فى تمييز كلام رب العالمين من كلام البشر، بل فى تمييز كلام رسول الله ﷺ، من كلامِه هو نفسه قبل البعثة، ومن كلام سائر العرب فى زمانه وبعد زمانه .

كان لرسول الله ﷺ صديقٌ يعرفه فى الجاهلية ، كما يعرف الناسُ بعضهم بعضًا ، فلما بُعث ﷺ على رأس الأربعين من عمره ، ناوأه قومه من قريش وسفّهوه وآذَوْه . فقدم هذا الصديق القديم مَكّة يومًا ، فسمع الناسَ يتحدَّثون أن محمدًا : شاعر وكاهنٌ ومجنونٌ ، يقول ابن عباس فى حديثه الذى رواه مسلم فى صحيحه ، وأحمدُ فى مسنده والنَّسائى فى سننه ، وابن سعد فى الطبقات ، وغيرهم ، وهذا لفظ مسلم : «عن ابن عباس : أنّ ضمادًا قدم مكّة ، وكان من أزد شَنُوءة وكان يَرْقِى من هذه الريح (أى من الجنون ومسّ الجن) ، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولونَ : إنّ محمدًا مجنون ! فقال : لو أنّى رأيت هذا الرجُل لعل الله يشفيه على يدىّ ! قال : فلقيه ، فقال : يا محمد ، إنّى أرقِى من هذه الرِّيح ، وإنّ الله يشفى على يدىّ من شاءَ ، فهَلْ لك ؟! فقال رسول الله ﷺ : إنّ الحمدَ لله ، نَحْمَدُه ونستعينُه ، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادىَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدًا عبده ورسوله ، أما بعدُ» قال فقال (ضماد) : أعِدْ علىّ كلماتِكَ هؤلاءِ ، فأعادهُنَّ عليه رسول الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ . قال فقال : لقد سمعتُ قول الكَهَنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعتُ مِثْلَ كلماتِك هؤلاءِ ، ولقد بلغنَ نَاعُوس البحر ! قال فقال : هات يَدَكَ أبايعك على الإِسلام ، قال : فبايعه ...

كلمات قلائل تذوَّقها ضمادٌ رضي الله عنه ، ولم يصبر حتى يُتْلى عليه بعض ما نُزِّل من القرآن يومئذ بمكة ، وقطع الحديثَ ليستعيد ما سمع ، ونحن اليوم نسمَعُها من كُلِّ منبرٍ فى كُلِّ يوم جمعةٍ ، ونحنُ فى غفلةٍ عن تذوُّقها تذوقَ ضمادٍ . كانت هذه الكلمات التى سمعها ضمادٌ يومئذٍ هى وحدها دليلَه

على نبوّة صديقه الذى كان يعرفه ويعرف كلامه بالأمس فى الجاهلية . لأنه وصل بتذوّقها إلى صميم الفرق بين كلام صاحبه بالأمسِ ، وكلامه فى هذا اليوم ، وأسرعت به إلى البيعة على الإسلام قبل أن يسمعَ كلام الله ! فأىُّ دقّةٍ فى التذوُّق !! وأىُّ رجالٍ كان هؤلاء الذين فُوِّض إليهم التفريق بين كلام رب العالمين ، وكلام عبيده من البشر !؟

لقد أطلتُ الاستطراد ، ولكنى رأيته شيئًا لابُدَّ منه، لأن مذهبى فى دراسة الأدب قائم عليه فيما كتبته قديمًا ، وفيما أكتبه اليوم ، ولأنَّه هو الفيصلُ الفارق بين مناهج الدراسة المتلقّاة عن غير أهل هذا اللسان ، وبين المناهج التى ينبغى أن تنبَعَ من الأصل الذى قامت عليه حضارة هذا اللسان ، ثم ضُلِّلْنَا عنه وطال الضلال . وهذا حينُ عودتنا إلى شيخنا محمد بن سلام ، وما كان من خبره فى تأليف كتاب «طبقات فحول الشعراء » .

* * *

نشأ أبو عبد الله محمد بن سلام واكتهل وبلغ من السنّ ما بلغَ ، فى سُرَّة عصرٍ فريد فى تاريخ البشر ، على تطاوُل القرون من قبله ومن بعده . أستثنى عصر رسول الله ﷺ وخلفائه الأربعة . وكان عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم قد انقضى ، وتدفق علمهم فى صدور ورَثَتهم متلاطمًا ، فانشقّ القرن الثانى من الهجرة عن بحور العلم الزاخرة وجباله الشوامخ . وكانت قَوَاعِد العِلْم الكبرى قائمة فى الكوفة ، وفى البصرة التى نشأ فيها ابن سلام ، وهما المدينتان العتيقتان اللتان تم تمصيرهما على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما بين سنة ١٤ ، ١٧ من الهجرة . وظَلَّت أجيال من علماء الأمّة تتوارث العلم ، وتتكاثر فى هاتين المدينتين العظيمتين ، فجاء منتصف القرن الثانى من الهجرة ، وفيهما وَفْرَةٌ وافرة من جبال العِلْم وبحاره المتدفقة . أدرك محمد بن سلام منتصف هذا القرن ، وهو بالغٌ يتعلَّمُ ، فشهد تلاقِىَ هذا التَدفّق من صدور العلماء إلى آذان تلامذتهم ، ثم تلقّى هذا الجيل من حفاظ العلم وطلبته تلقِّيًا يزخَرُ بالهمة والفهم والتوسُّع . كان علم هؤلاءِ العلماء بحرًا يجيش فى صُدُورهم ، أَقَلُّهُ

ما قيدُوه كتابةً ، وأكثرُه ما كانوا يتحدثون به ، ويُبينون عنه بألسنتهم حين يُسْألون عن بيانِ ما يتحدثون به . فَقَلَّ اهتمامهم بتأليف الكُتُب الكبارِ المفصَّلة المفسَّرة ، وأكثرهُمْ لم يؤلِّفْ كتابًا قَطُّ ، وإنما سارَ علمه فى الناسِ بكثرة من أخذ عَنْه وسألَهُ وأجابه . فكان جُلُّ تلامذتهم يسيرون على سنتهم ، ويَتَلقَّون عنهم . ويحفظون ما يتلقَّونه وما يكتبونه مع ما سمعوه منهم ، بيد أن بعض تلامذتهم خالفوا سُنَّتهم في ترك تأليف الكتب ، وفى الاقتصار على تأليف الكتب الصغار .

ولكى تكون هذه الصورة واضحةً ، ينبغى أن نضرب مثلًا يبينُ عنها . فالخليل بن أحمد الفراهيدى (١٠٠ - ١٧٠هـ) ، كان أحد ورثة العلم الكبار ، وكان بحرًا لا يكادُ يدرك مداهُ . ومع ذلك فإنّه لم يؤلِّف إلا كتبًا صغارًا جدًّا ضاعَ أكثرها ، أو جميعها على الأصحّ ، ولكنَّه كان لطلبة العِلْم يَنْبوعًا متفجِّرًا يصدُر عنه الورّاد رواءً ، حتى قال أحد تلامذته النضر بن شميل : « أُكِلَت الدُّنيا بعلم الخليل وكتبه ، وهو فى خُصٍّ لا يُشْعَرُ به » . هذا مع أنَّه أوَّل رجل فى الأرض ، وضَع الأساس الكامِلَ لتأليف معاجم اللغة لم يَسْبقْهُ أحدٌ إلى مثله ، والبشر قاطبة عيالٌ عليه فى معرفة الطريق إلى تأليف المعاجم ، فهو الذى حدّدَ أصول المعجم المنسوب إليه ، وهو «كتاب العين » ، قال ثعلب : « إنما وقع الغَلَطُ فى كتاب العينِ ، لأنّ الخليل رَسَمَهُ ولم يَحْشُه ، ولو كان حشاهُ ما بقى فيه شيء ، لأنَّ الخليل رجُلٌ لم يُرَ مِثْلُه ، وقد حشا الكتاب قوم علماء ، إلّا أنّه لم يؤخذ عنهم رواية ، وإنّما وُجِد بنقل الورَّاقين ، فاختلَّ الكتاب لهذه الجهة » . وطريقة رسم الكتاب التى ذكرها ثعلب ، أنّ الخليل حين فكَّر فى وضعِ معجم يجمع لغة العرب ، لجأ إلى حَصْر رؤوس مادة اللغة أوّلًا ، وذلك بأن عمد إلى أصعب طريق ، ولكنَّه أوثَقُه حتى لا يسقط من مادة اللغة شيء ، فأخذ حروف المعجم التسعة والعشرين (أ . ب . ت . ث ......) ، ولجأ إلى ما نسمّيه اليوم «قانون التباديل والتوافيق» ، فاستخرج عدّة الأبنية التى يمكن أن تتركب من حروف المعجم ، فبلغت عدّة ملايين ، فى الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى من

الأبنية . ثم عرضَ هذه الملايين على ما فى صدره من كلام العرب ، فاستخرج المهمل والمستعمل ، حتى حصر اللغة حصرًا دقيقًا بلا رجوع إلى كتاب مقيّد، فوضع هذا الأصل لمادة اللغة، ولكنه لم يزد على الحصر. ثم تبعه الناسُ ، فألفوا معجم اللغة ، وإن خالفوا فيما بعدُ طريقته .

وهو أيضًا أوّلُ رجُلٍ ضبط حدودَ الحركات والسكنات على نِسَبٍ لا تختَلُّ ، إذا بُنى عليها كلامٌ من كلام العرب كان نغمًا مَوْزُونًا ، وأراد بذلك أن يضبط ما يسمَّى فى كلام العرب «شعرًا» ، وهو علم العروضِ الذى نعرفُه . وعن طريق اهتدائه إلى هذا الضبط ، اهتدى أيضًا إلى ضبط نغم الموسيقى ، فكان أوَّل رجل فى الأرض وضعَ هذا الضبط ، وأخذه عنه إمام الموسيقى فى عصره ، (والخليل لم يكن له معرفة بالموسيقى) ، إسحق بن إبراهيم الموصلى (١٥٠ - ٢٣٥هـ) ، فأتمَّ عمل الخليل بعلمه . وحين ألف إسحق كتابه «الإيقاع والنغم» ، عرضه على ضريعه ومنافسه ومخالفه فى الطريقة ، إبراهيم بن المهدىّ (١٦٣ - ٢٢٤) ، فقال له إبراهيم : « أحسنت يا أبا محمد ، وكثيرًا ما تُحْسِنُ ! » فقال إسحق : « بل أحسن الخليلُ ، لأنّه هو الذى جعل السبيل إلى الإحسان » . وأسَّس إسحق علم الموسيقى وضبطه ، وكان عَمَلُ الخليل هو الذى هداه ، وهدى الناس من بعده إلى ضبط الموسيقى وحصرها ، وهو الذى نعرفه اليوم باسم «النوتة الموسيقية» .

وكان الخليل يوشك أن يأتى بأعجب من ذلك . أراد أن يضبط علم الحساب ويحصره حتى يكون له ميزان يُرْجَع إليه ، كالذى فعله فى « العروض » و « النغم » ، وقال يومئذ : « أريدُ أن أقرِّبَ نوعًا من الحساب ، تمضى به الجارية إلى البقّال ، فلا يمكنه أن يظلمها » ، أى أن يغالطها فى الحساب ، وهى جاهلة الحساب . فدخل المسجد يومًا وهو مشغول بوضع هذا الميزان الخاص للحساب ، فصدمته سارية من سوارى المسجد ، وهو غافل مُسْتغرق فى حسابه ، فانقلب على ظهره ، فكان ذلك سبب موته بعد قليل .

فلننظر الآن كيف صار أمـــرُ علم الخليل ، الذى نستطيع أنْ نقولَ إنه لم

يؤلف فى عمره الطويل كتابًا يُذْكر ، والذى قال فيه تلميذه النضر بن شميل (٠٠٠ – ٢٠٣) : « ما رأى الراؤون مثل الخليل ، ولا رأى الخليلُ مثل نفسه » .

أما « النغم » ، فقد ذهب به إسحقُ كما قلنا . وأمّا « علم العروض » ، فأخذه عنه أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٠٠٠ – ٢١٥) ، فبسط هذا العلم ومدّه واستوعبه ، وتبعه الناس ، وبقيت كتب الأخفش من بعده أصلًا واسعًا لهذا العلم ، وضاع قليلُ ما كتب الخليل . وأمّا مادَّةُ حَصْر اللغة التى أسسها ووضعها فى أصل كتاب العين ، فأخذه عنه الليث بنُ نصر بن سيار ، وحشاهُ وتبعه الناس .

أما علمُ النحو والعربية ، وهو أوثقُ علوم الخليل وأجلُّها ، فلم نسمع قَطُّ أنه ألف فيه كتابًا ، وقد تلقَّاهُ عنه عشراتٌ من كبار العلماء من شيوخه وأسنانه وتلامذته ، ولكن بان من بينهم شابٌّ آثره الخليلُ بما ضَنَّ به على غيره، وحمَّله علمه وأسراره الخفية وكان شابًا ملء ثيابه عقلًا وإدراكًا وبيانًا وذكاءً ومقدرةً ، وهو سيبويه (٠٠٠ – ١٨٠). وقد بلغ من إيثار الخليل سيبويه بعلمه ، أن الأخفش ، حدث عن نفسه فقال : «حضرت مجلس الخليل ، فجاء سيبويه فسأله مسألةً وفسَّرها له الخليل ، فلم أفهم ما قالا ، فقمتُ وجلستُ له فى الطريق ، فقلت : جعلنى الله فداءَك ! سألتَ الخليل عن مسألةٍ ، فلم أفهم ما ردّ عليك. ففَهِّمْنيه ! فأخبرنى بها ، فلم تقع لى ولا فهمتُها . فقلتُ له : لا تتوهَّم أنى أسألك إعناتًا ، فإنى لم أفهمها ولم تقع لى ! فقال لى : ويلكَ ! ومتى توهَّمْتَ أنى أتوهَّمُ أنَك تُعنِتُنى ، ثم زجرنى وتركنى ومضى» . وظَلَّ هذا الشاب يأخذ عن الخليل من ينبوعه المتفجِّر ، وبذل له سرَّ العربيّة الذى كان فى صدره ، وعقد لَهُ بناء النحو عقدًا كاملًا وآثرهُ به، ولم يكتب هو شيئًا ، وبقى مع الخليل حتى مات ، يحدثنا القاضي إسماعيل بن إسحق الأزدى (٠٠٠ – ٢٨٢)، عن نصر بن على بن نصر الجهضمّى (٠٠٠ – ٢٥٠)، عن أبيه على بن نصر الجهضمى (٠٠٠ – ١٨٧) . وكان قرين سيبويه ، وكانا معًا من أصحاب الخليل فى علم العربية ، قال على بن نصر : «قال لى سيبويه حين رآنى (يعنى بعد موت الخليل) : تعالَ نتعَاوَنْ على إحياءِ علم الخليل» ، ولكن عليا لم يعاون سيبويه ، فانطلق سيبويه وحدَه

يؤلف هذا الكتاب البَحْر ، الذى لم ير الناس مثله قبله ولا بعدهُ ، وهو «الكتاب» ، وقد قلت منذ أربعين سنة إن قراءة كتاب سيبويه ، وتتبعَ مصطلحاته ، تدلُّ دلالة قاطعة على أن الخليل هو الذى وضع لسيبويه بناء هذا الكتاب ، وأنه هو الذى عقد لَهُ عَقْدَهُ الذى نراهُ عليه اليوم . ولولا الخليل لما كانَ « الكتاب » !

هذه صورة تلاقى جبال العلم الشوامخ الذين كان علمهم فى صدورهم وقلَّ تأليفهم ، وبحارُ العلم من تلامذتهم الذين تدفّقَ إليهم علم شيوخهم ، فألَّفوا وكتبوا ووضعوا أصول العلم المختلفة . انتزعتُها من رجُل واحد ، ورثه تلامذته ، وأشباهُ هذا الرجل الفذّ كثيرٌ فى عصره ، وأشباه تلامذته كثير من بعد شيوخهم . وقد شَهِدَ محمد بن سلام هذا التلاقي وما كان من أثره ، منذ كان يحضُرُ مجالس أبى عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، والأصمعى ، وأبى عبيدة والخليل بن أحمد وسيبويه ، والأخفش ، فنازعته نفسُه منذ ذلك الوقت أن يفعل فى شأن الأدب والشعر وأخبار العرب ما فعل هؤلاء بعلم «العروض» و «علم النغم» ، و «علم النحو والعربية» ومضت الأيام به سراعًا حتَّى كانت سنة ٢٢٢ ، وهو فى الثانية والثمانين من عمره ورأى العلماءَ من قَبْله ترحَلُ إلى بغداد ، المدينة الحديثة العهد التى أنشأها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٦ ، وصارت دارَ الخلافة ، واحتشد فيها مهاجرة العلم والعلماء ، وعزمَ على أن يلحقَ بمن سبقَهُ ممن هاجر مِن البصرة إلى بغداد ، وفى نفسه ذلك الأمل الذى لم يحقّقه ، لأنّه بقى على إلفه القديم من سُنّة العلماء الماضين ، ممن كان علمهم فى صدورهم . فلما دخل بغداد ، ولقيته الحفاوةُ كُلَّ الحفاوة ، ورأى أفواج العلماء والأشراف وطلبة العلم ، تطيفُ به من نواحيه ، ويسأله السائلون ويستفسرونه ويستخبرونه ، وهو الإمام المشهور فى الأدب واللغة والعربية والشعر ، وبقيةُ الماضين من جبال العلم الشوامخ ، عادَ ما كان يجيش قديما فى صدره من تأسيس علم الأدب وعلم الشعر وعلم أخبار العرب ، بكتب يؤلفها . ولكن لم يكد حتى مرض .. وزاره الطبيب ابن ماسويه ، فقال له فيما قال : « الإنسان فى غفلةٍ حتَّى يُوقَظَ بعلة ، ولو وقفت على عرفات وقفة ، وزرت قبر رسول الله

ﷺ زورة ، وقضيتُ أشياء فى نفسى ، لرأيتَ ما اشتدَ علىّ من هذا قد سَهُل » .
فبدأ بعد أن استبلَّ ، فى وضع منهج كتابه الأول «طبقات فحول الشعراء» ، وكتب هذا المنهج فى صدر كتابه ، ومضى يؤلِّفُ ، ليؤسس بهذا الكتاب «علم الأدب والشعر » ، كما فعل الأخفش وسيبويه وغيرهما ، ومضى عَجِلًا وألَّف ، وفرغَ فيما أرجِّحُ ، من نسخته الأولى ، ولكنه فوجئ برجُلٍ كان واحدَ الدُّنْيَا فى زمانه ، فذكَّرَهُ بأشياء كان ينبغى أن تكون أساس منهجه ولكنه غَفَلَ عنها أو نَسيَها ، أو لم تخطُر له فى أول التأليف على بالٍ ، مع تقدُّم السنِّ ، ومع العجلة ، ومع غموضِ تأسيس منهج شاملٍ لعلم الأدب والشعر . هذا الرجل ، هو يحيى بن مَعين بن عون ، أبو زكريا المرّىّ ، مولى مرّة غطفان ، المولود سنة ١٥٨ ، والمتوفى سـنة ٢٣٣هـ ، من هو يحيى بن معين ؟ وماذا فعل بابن سلامٍ ؟

* * *

كان يحيى بن مَعين فتًى من أبناء الأغنياء ، وكان أبوه معين بن عون عاملًا على خراج الرىِّ ، وهى قصبة الجبال ، ومن أمهات البلاد وأعلام المدن يومئذٍ .
فلمّا مات أبوه خلَّف له ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فأنفق ذلك كُلَّه على طلب حديث رسول الله ﷺ ، حتى لم يبقَ له نعلٌ يَلْبَسُه ، ولكنَّه صار واحد الدُّنيا فى علم الحديث ، وآلت إليه إمامة علم الرجال والجرح والتعديل .
وقد حفظ لنا قرينه وضريعُه عَلِىُّ بن عبد الله بن جعفر السعدىّ المعروف بابن المدينىّ (١٦١ - ٢٣٤) صورة رائعة جدًّا لتدفُّق العلم من مطلع القرن الأول للهجرة ، إلى منتهى القرن الثانى . وهى صورة تزيدُ ما قلناه فى شأن الخليل وتلامذته وضوحًا .

قال ابن المدينى : « انتهى العلم بالبَصْرةِ إلى يحيى بن أبى كثير وقتادة = وانتهى علم الكوفة إلى أبى إسحق والأعمش = وانتهى علم الحجاز إلى ابن شهاب وعمرو بن دينار = وصار علمُ هؤلاء الستة إلى اثنى عشر رجلًا ، منهم

بالبصرة : سعيد بن أبى عَروبة وشعبة ، ومعمر ، وحمّاد بن سلمة ، وأبو عَوانة = ومن أهل الكوفة إلى سفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، ومن أهل الحجاز إلى مالك بن أنس = ومن أهل الشام إلى الأوزاعىّ ، وانتهى علم هؤلاء إلى محمد ابن إسحق ، وهشام ، ويحيى بن سعيد بن أبى زائدة ، ووكيع ، وابن المبارك ، وهو أوسع هؤلاء علمًا ، وابن مهدىّ ، ويحيى بن آدم = فصار علم هؤلاء جميعًا إلى يحيى بن معين » . وهذه صورة فى غاية الوضوح ، فلمّا صار هذا كُلُّه إلى ابنِ معين ، فتح به فتحًا كبيرًا فى علمين جليلين : علم الأحاديث وما يكون فيها من الخطأ ، وما يكشفُ عن وضع الوضاعين الذين كذبوا على رسول الله ﷺ ، وعلم الرجال والجرح والتعديل ، وتوفى ابن معين ، فترك مئة قمطر وأربعة عشر قمطرًا ، وأربع حِبَابٍ كبار مملوءةً كتبًا .

وعلى تطاول الأيّام ، بلغ ابن معين الغاية وفاق أقرانَه وشيوخه فى معرفة الحديث ، وفى الجرح والتعديل ومعرفة الرجال ، وكان قضى دهره فى الرحلة فى الآفاق ، لا يفتُر فى تتبّع علم ذلك عند العلماء والرواة ، وعند كُلٍّ من نزل بغداد منهم . فصارت له بذلك خبرةٌ لا تدانيها خبرة أحدٍ من قبله ولا من بعده . وقد حدثنا عبد الله بن محمد اليمامى المحدّث ، المعروف بابن الرومى (٠٠٠ - ٢٣٦) قال : «كنت عند أحمد بن حنبل ، فجاء رجُلٌ فقال : يا أبا عبد الله ، انظر فى هذه الأحاديث ، فإن فيها خطأ ! فقال أحمد : عليك بأبى زكريا ، فإنه يعرف الخطأ » . فهذه شهادة أحمد . أما أبو سعيد الحدّاد فإنه قال : « إنا لنذهب إلى المحدّث فننظُرُ فى كتبه ، فلا نرى فيها إلا كلَّ حديث صحيح ، حتى يجئ أبو زكريا ، فأول شيء يقع فى يده الخطأ ، ولولا أنه عرّفَنَاه لم نعرِفْهُ » وهذا الاستيعابُ البحرُ الذى أوتيه أبو زكريا بن معين ، قذفَ هيبته فى قلوب كُلِّ من حدّث عن رسول لله ﷺ ، وقد تحدث هرون بن معروف المروزى (١٥٧ - ٢٣١هـ) ، وهو من أقران ابن معين قال : « قدم علينا (يعنى ببغداد) بعضُ الشيوخ من الشام ، وكنت أوّل من بكَّر عليه ، فدخلت عليه فسألته أن يملى علىَّ شيئًا ، فأخذ الكتاب يملى عليّ . فإذا بإنسان يدقُّ الباب ، فقال الشيخ : من هذا ؟

قال : أحمد بن حنبل ! فأُذنَ له ، والشيخ على حاله والكتابُ فى يده لا يتحرّكُ . فإذا بآخر يدق الباب ، فقال الشيخ : من هذا ؟ قال : أحمد الدورقيُّ ! (أحمد ابن إبراهيم الدورقى : ١٦٨ - ٢٤٦) . فأُذن له ، والشيخ على حالته ، والكتاب فى يده لا يتحرك . فإذا بآخر يدقُّ الباب ، فقال الشيخ : من هذا ؟ قال : أبو خيثمة زهير بن حرب (١٦٠ - ٢٣٤) ، فأذنَ له ، الشيخ على حالته ، والكتاب فى يده لا يتحرَّكُ . فإذا آخرُ يدقُّ الباب ، قال الشيخ : من هذا ؟ قال : يحيى بن معينٍ = فرأيتُ الشيخ ارتعدتْ يدُهُ ، وسقط الكتاب من يده !!» . وهذا خبرٌ رائعٌ يمثّل حقيقة الهيبة التى ذهبت فى الآفاق من مخافة علم ابن معين بالحديث ، وهذا هو ابن معينٍ .

لننظر الآن كيف التقى الرجلان محمد وابن معين .

* * *

لمّا قَدم محمد بن سلام بغداد ، وهو إمام ذائع الصيت ، وشيخ قديمُ الميلاد ، سمعَ قُدماءَ الشيوخ ، وتكاثر عليه العلماء وطلبة العلم ، يسألُونه ، كان فيهم كثيرٌ من أهل الحديث ، حديث رسول الله ﷺ . جاءه عبد الله بن أحمد بن حنبل يسأله ويأخذ عنه ، ويعرض حديثه على أبيه أحمد ، وينكر أحمد بعض حديثه . وجاءه الإمام الحافظ أبو خيثمة زهير بن حرب ، وقال : « لا يُكتب عن محمد بن سلام الحديث ، رجل يُرمى بالقدر ، إنما يُكتب عنه الشعر ، فأمَّا الحديث فلا » أمّا يحيى بن معين على خلافهما ، فإنه كان يكثر الاختلاف إليه وإلى أخيه المحدِّث عبد الرحمن بن سلام . فكان يذاكر ابن سلام الشعر والأخبار والنسب ، بلا ريب ، لأنه إمامٌ فى هذا كله . وقد ذكر الحافظ بن الحافظ أبو بكر أحمد بن أبى خيثمة زهير بن حرب ، محمدَ بن سلام فقال : «كان يحيى بن معين قد ذهبت كتب عنه . كتبتُ أنا ليحيى بن معين النسب عنه بخطّى » . والذى لا ريب فيه أيضًا أن ابن معين لا يترك سؤال مثل ابن سلامٍ عمّا عندهُ من حديث رسول الله ﷺ وما رواه عن قدماء الشيوخ بالبصرة . كان ابنُ سلام فى سنة ٢٢٢ يوم قدم بغداد قد جاوز الثانية والثمانين ، وكان يحيى بن معين يومئذٍ

قد بلغ الخامسة والستين، فهو لا يسأله سؤال طلبة العلم الصغار شيوخهم، بل سؤال العلماءِ الكبار للعلماءِ الكبارِ، بلا شك. وإن كان ليس في أيدينا الآن، فيما بلغه عجزى أخبار، تدلّ على ما كان يجرى بينـهما. وكُلُّ ما عندنا هو حديث أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب أنه قال: «حدثنا محمد بن سلام، عن زائدة بن أبى الرقادِ، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال، قال النبى ﷺ لأمّ عطية: يا أمّ عطية، إذا خفضْتِ فأَشِمِّى ولا تَنْهكِى، فإنه أضوأ (أنضَرُ) للوجه، وأحظى عند الزوج» قال أبو العباس: «رأيت يحيى بن معين بين يدى محمد بن سَلّام يسألُه عن هذا الحديث». وسبب سؤال يحيى عن هذا الحديث محمد بن سلام، أن ثابتا البُنانى صحب أنسًا أربعين سنة، فكان من أثبت الناس فى أنس، أمّا زائدة بن أبى الرقاد الباهلى، الذى يروى عنه محمد ابن سلام، ويروى هو عن أنس فإن البخارى قال فيه «منكر الحديث» وقال ابن حبان: «روى المناكير عن المشاهير، لا يُحتج به، ولا يُكتب إلّا للاعتبار». وقال البزاز: «لا بأس به، وإنما نكتب من حديثه ما لم نجد عند غيره». وقد حاولت أن أتتبع هذا الحديث فى حديث أنس، فلم أجد له ذكرًا، وحديث أم عطية رواه بغير هذا اللفظ أبو داود فى السنن، فى كتاب الأدب، من طريق محمد بن مروان، عن محمد بن حسان، عن عبد الوهاب، عن عبد الملك بن عمير، عن أم عطية، وقال أبو داود: «رُوى عن عبيد الله بن عمرو، عن عبد الملك، بمعناه وإسناده. وليس بالقوى. وقد روى مرسلًا. وقال أبو داود: محمّد بن حسان مجهول، وهذا الحديث ضعيف». والذى لا أكاد أشكُّ فيه أن ابن معين قد بيّن لابن سلام مثل هذا وأكثر منه، فى هذا الحديث، وفى غيره من الأحاديث التى سألَهُ عَنْهَا، وطالت المفاوضة بينهما على طول اختلاف ابن معين إلى ابن سلام.

والذى لا أكادُ أشكُّ فيه أيضًا أنّ ابنَ سلام قبل نزوله بغداد وهو بالبصرة، كان قد سَمِعَ بعض ذكر ابن معينٍ، إذ كان صيته قد طار فى الآفاق. فلما رآه وفاوضه العلم، رأى منه ما كان يَرَى الناس منه حتى كان يقول بعضُ من

يحدث عنه : «حدّثنى من لم تطلع الشمسُ على أكبر منه» ، يعنى يحيى بن معين . والذى لا أكادُ أشكُّ فيه أيضًا أن ما سمعه ابن سلام من ابن معينٍ قد دلَّه أعظم الدلالة على ما يبذُله هذا الإمامُ من جُهْد فى تخليص حديث رسول الله ﷺ من كُل ما يشوب متونه وأسانيده ، لينفى عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ولا أظنُّ أن ابن سلامٍ حين سمع ابن معين ، لم يذكُرْ ضريعه البصرىّ ، وهو بلديُّه ، رحل مثله عن البصرة إلى بغداد أيضًا ، وهو «على بن عبد الله بن جعفر السعدىّ ، المعروف بابن المدينى (١٦١ – ٢٣٤هـ) ، وكان إمامًا من الجهابذة النقاد للحديث كصاحبه ابن معين ، ومن قبلهما صاحبه البصرى أيضًا «يحيى بن سعيد القطان» (١٢٠ – ١٨٩) ، وكان من سادات أهل زمانه ورعًا وحفظًا وفضلًا وعلمًا ، وهو الذى مهّد لأهل العراق رسم الحديث ، وأمعن فى البحث عن الثقات ، وترك الضعفاء ، وهؤلاء الرجال هم الذين أسسوا علم معرفة الرجال والجرح والتعديل ، وعلم الموضوع من الحديث على رسول الله ﷺ . وأنا أتوهَّم أن هذا الذى عرفه ابن سلام يومئذ ، قد أثارَهُ إلى أن يؤسِّس هو أيضًا أساسًا لمثل هذين العلمين فى ناقلة الآداب والأخبار والشعر ، لينفى عن الشعر خَبَثَ ناقلته ورواته . وخبث الموضُوعِ على ألسنة شعراء الجاهلية وغيرهم فى كتبٍ كانَ قد آذاهُ رؤيتُها وقراءتُها من قبل . ولكن فيما أتوهَّم ، كان قد فرغَ من تأليف كتابه «طبقات فحول الشعراء» ، الذى بَيَّنَ منهجه فيه فى رسالة الكتابِ ، وأغفل الحديث عن هذين العلمين ، وراودته نَفْسُه أن يَضَع كتابًا آخر غير الكتب الأربعة : «الطبقات» ، و «كتاب فرسان الشعراء» ، و «كتاب سادات العرب وأشرافها وما قالوه من شعر» ، و «كتاب أيام العرب» ، ويجعل هذا الكتاب الخامس مقدِّمة لعلم الأدب والشعر ، ويذكُر فيه الموضوع على شعراء العرب ، ثم يبيِّن طبقات علماء الشعر وجهابذته ونُقَّاده ، ويذكر الكذابين والوضَّاعين من الرواة والمؤلفين للكتب فى زمانه ، على الوجه الذى ذكَّره به يحيى بن معين وابن المدينىّ فى تأسيس علوم الحديث .

ولكن ابن سلام كان قد أسنَّ وطعن فى التسعين، فصارَ على عجلٍ من أمره، وهو بين حاديين حثيثين: حادى العُمر الذى لا ينقطِعُ حُداؤه، وحادى العِلَّة المُدْنية إلى العجز عن إتمام نيته. فلمَّا عاد إلى كتابة النسخة الثانية من «كتاب طبقات فحول الشعراء»، وهو كما ذكرت آنفًا، قد فرغَ منها قبيل وفاته بأيام، خافَ أن يسبقه الأجلُ وهو يسمع حُداءَ الحاديين الحثيثين، فلم يكد يشرع فى كتابة الطبقات أو كتابة المقدمة، ويبلغ آخر الفقرة الثانية: «فبدأت بالشعر» وكاد يكتب «ففصَّلتُ الشعراء من أهل الجاهلية»، جَزِعَ ووضع القَلَم يؤامر نَفْسَه: أيمضى فى الكتابة حتى يفرغ من كتاب الطبقات ثم يكتب هذا الكتاب الذى لا غنى عنه فى علم الشعر والشعراء، أم يكفُّ، ويضَعُ شيئا موجزًا لا غنى عنه فى شأن الموضوع على الشعراء، وفى شأن طبقات العلماء أهل الرواية الصحيحة، وتفصيل شأن الوضاعين والكذابين من رواة الشعر والأخبار؟ وحَارَ وبلغت منه العلة، فعزمَ عزمًا قاطعًا على أن لا يُخْلِى الكتابَ من ذلك، فإنّه لا يضمن السَّعة فى الأجل، ولا إفاقة العِلَّة مع علوِّ السّن وضعف البدن، وتقطُّع الهمة، فعزم عزمًا، وهجم على الأمر هجومًا، ولم يبال أن يُقْحم، ما يريدُ بين الكلامين المتصلين المترابطين إقحامًا، فبدأ الفقرة الثالثة، بقوله: «وفى الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع لا خير فيه .....»، وعَجِلَ عجلًا شديدًا فيما كتب حتى كاد يضطرب الأمر فى هذه الفقرات، من الثالثة إلى الفقرة الثالثة عشرة. ثم عَجل أيضًا فأتبع ذكر الموضوع، بذكر طبقات علماء البصرة من أهل العلم والرواية الصحيحة، فذكر من ذكر، ثم ضعف بأخرةٍ فى آخر فقرة بعد أن مضى على سننه من الفقرة الرابعة عشرة إلى الفقرة الثلاثين، فاختصر الكلام اختصارًا شديدًا، فقال: «وكان الأصمعىُّ وأبو عبيدة من أهل العلم، وأعلم من وردَ علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفى». فانظر إلى هذا الإيجاز فى ذكر الأصمعى وأبى عبيدة، وهما شيخاه وصاحباه! ثم انظر إلى عجلته وخوفه من تفلُّت الأمر، فاقتصر من كلّ علماء الكوفة على رجل واحدٍ من كثير ممن ورد عليه بالبصرة من علماء الكوفة! رأى

الأمر قد طالَ، فعاد يصل الفقرة الثانية بأختها فى الفقرة الحادية والثلاثين، بلا رابط وبلا دلالة على الانتقال من كلام إلى كلام فكتب: «ففصلت الشعراء من أهل الجاهلية ......» ورأى ابن سَلَّام أَنه قد أبْلَى وبلغَ بهذه الفقر المقحمة، غايةً تقصرُ عما فى نفسه، ولكنها على كُلّ حالٍ دليلٌ على ما كان يحبُّ أن يستوعبه ويفيض فيه، ليؤسِّس لعلم الأدب والشعر والأخبار، أساسًا صحيحًا، بتفصيل الوضع على الشعراء، والتمييز بين رواة الشعراءِ والأخبار، ليُعْرف بذلك سقيمها من صحيحها، كالذى فعله يحيى بن معين، وعليٍ بن المدينى، وأحمد ابن حنبل، والأئمة الجبال الشوامخُ الذين ضبطوا عِلْم الأُمَّة بعد أن تلقَّوه من بحور العلم، منذ أول عهد الإِسلام، إلى أن صار إليهم فى مطلع هذا القرن الثالث من الهجرة. وقد أحسن ابن سلامٍ ولم يُسِيء، ولكن الذى أرادَه، لم يحقّقه أحدٌ من بعده، فى تأسيس هذين العلمين، وإن كانوا قد بلغوا الغَايَة بعد ذلك فى تمحيص الشعر والأخبار فيما كتبوا ورَوَوْا. أما تأسيس علمٍ للموضوع، وعلم لرواة الأخبار والشعر، فقد ذهب، كما ذهبَ ما كان فى صدر محمد بن سلام رحمه الله مما لم يكتبه.

* * *

أظنُّ أنِّى قد بلغتُ بعضَ الصواب فى الاستدلال على أن هذه الفقر من (٣ - ٣٠) من كتاب الطبقات، مقحمة إقحامًا مفاجئًا غريبًا على سياق رسالة كتابه، التى أراد أن يبينّ فيها منهجه. وأظنُّ أيضًا أنى بيّنتُ بعض البيان بعضَ ما أثارهُ إلى العجلة وترك المبالاة بما يحدثُه هذا الإِقحام. ولكن هذا وحده لا يكاد يكفى، فيما أرجِّح فى فهم الفقرة الثالثة، وهو غير كافٍ بلا ريب فى تصحيح عبارة ابن سلام التى زعمتُ أنه جَارَ فيها بالعَجلَةِ عن الصوابِ. وإذا كان نزوله بغداد، ولقاؤه ابن معين يفاوضه الحديث والعلم والشعر أيضًا، قد كشف له عمَّا فعل أهل الحديث فى تأسيس علل الحديث وعلم موضوع الأحاديث، وعلم نقلة الأخبار وتعديلهم وتجريحهم = فإن ذلك أيضًا قد ذكَّره بقديم ما فى نفسه، مما كان يحبُّ أن يقضيه فتطاول عليه العُمُر ولم يفعل،

وقديمُ ما فى نفسه ، كان ، بلا شك ، خُلاَصة لقائه الشيوخ العلماء القدماء ، وما سمعه منهم فى تمحيص أخبار العرب وأخبار شعرائها وفرسانها وساداتها وأيامها ، وما وقف عليه هو بالتتبُّع والحوار والمقارنة ، حتى صارت له بذلك خبرةٌ وثقافة . بيد أن هذا وحدَه لم يكن هو كُل الذى هاجه بعد لقاءِ ابن معين ، حتى يعزمَ على تصنيف كتاب أو كتب يؤسس بها قواعد علم الأدب وعلم الشعر وعلم الأخبار ، وتبيُّن مراتب العلماء ونقلة الأخبار والشعر ، وتميّز ثقاتِهم وعدُولهم وأهل الحفظ والتثبت والإِتقان واليقظة منهم ، من أهل الغفلة ، وسوءِ الحفظ ، والكذابين والوضاعين الذين يخترعون الأخبار ، وحملةِ الغثاء المصنوع المفتعل الذي ينسبونه إلى الشعراء وأصحاب البيان من الفرسان والساداتِ .

وابن سلام رحمه الله لم يُخْلنا من الدلالة على بعض ما هاجه ، فإنه حين قال : « وفى الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع » ، قال بعد ذلك : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ...» ، فهؤلاء « القوم » هم الذين هاجوه ، وهاجه تداولهم هذا الغثاء ، ولعلَّه رأى ذلك قد ذاع وتداوله ناس أيضًا فى أحاديثهم ممَّن ليسوا من جهابذة الشعر . ولم يذكر ابن سلام مَنْ هم هؤلاء القوم ، بيد أنه دلَّنا بعد قليل على واحدٍ مِنْهم ، وكان مع ذلك إمامًا من أئمة العلم الكبار ، وفى السِّير خاصة ، وهو حين قال فى أول الفقرة السابعة : « وكان مِمَّنْ أفسَد الشعر وهجّنه وحمل كُلَّ غثاء منه ، محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخرمة ، وكان من علماء الناس بالسير » . فهل نستطيع أن نعرفَ سائر هؤلاء القوم الذين عناهم ؟ وما هى كتُبُهم ؟ وما كان فيها من الغثاء المصنوع الذى أفسدَ الشعر وهجَّنه ؟ وعلى أى صورة كان تصنيف ما فى هذه الكتب ، وما تحتويه من شعر وغثاء مصنوع ؟ نعم ، بعض ذلك ممكن . فمن الذين كانت لهم كُتُبٌ ، عرفها بن سلام وغيره من أهل زمانه ، نَفَر لا نستقصيهم ، ولكن نعُدُّ منهم :

(١) عُبَيْد بن شَرِيَّة الجرهميّ ، الذى استقدمه معاوية رضى الله عنه من صنعاء ، فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وتوفى سنة ٦٧ ،

وله من الكتب « كتاب الأمثال » ، و« كتاب الملوك وأخبار الماضين » وكأنه هو المطبوع مع كتاب « التيجان » باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى ، فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها »

(٢) ووَهْب بن مُنبِّه الأنبارى الصنعانى ، ولد سنة ٣٤ وتوفى سنة ١١٤، وله كتب ، منها « كتاب الملوك المتوَّجة من حمير وأخبارهم » . وكان تابعيًّا لقى أبا هريرة وأبا سعيد الخدرىّ وابن عباس ، وكان ثقة ولكنه كان يقرأ الكتب وكان حفيًّا بأخبار الماضين ، وسنذكره أيضًا عند ذكر حفيده بعدُ .

(٣) ومحمد بن إسحق ، صاحب السِّير ، وقد ذكره ابن سلام ، ولد فى نحو سنة ٨٥، وتوفى سنة ١٥١، وكان ثقة مشهورًا ، وانتهى إليه العلم ، ولكن وضع منه أنه كان رجلًا يشتهى الحديث والأخبارَ ، ويأخذ كتب الناس ويضعها فى كتبه ، قال النديم فى الفهرست : « كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويُسْأَلُ أن يدخلها فى كتابه فى السيرة ، فيفعل ، فضمَّن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحةً عند رواة الشعر ، » . وله من الكتب أيضًا « كتاب المبتدأ » .

(٤) والشَّرْقِيُّ بن القُطامىّ (الوليد بن الحصين) الكلبىّ ، المتوفى سنة ١٥٥، ولم أعرف له كتابًا ، إلّا أنه كان صاحب سَمَرٍ وحديث ، وأخذ عنه الناس فى كتبهم أخبارًا جمةً . وقد روى الأصمعى قال : حدثنى بعض الرواة قال : قلت لشرقى بن القُطامىّ : ما كانت العربُ تقرأ فى صَلاَتها على موتاها ؟ (يعنى فى الجاهلية) فقال : لا أدرى ! قلت : كانوا يقرأون :

وما كُنْتَ وَكْوَاكًا ولا بِزَوَنَّكٍ رُوَيْدك حتى يَبْعثَ الخلقَ باعثُهْ

قال : « فإذا هو يوم الجمعة يحدِّث به فى المقصورة » . وهذا البيت لامرأة ترثى زوجها . و« الوكواك » الجبان ، و« الزَّوَنَّك » ، القصير الدميم .

(٥، ٦) ومحمد بن السائب الكلبىّ المتوفى سنة ١٤٦، وولدهُ « هشام بن محمد بن السائب الكلبى » المتوفى سنة ٢٠٤، والذى أكثر الرواية عن أبيه . وكتبُ هشام كثيرة جدًّا فى أخبار العرب وأيامهم ، وفى أخبار الشعر ، وفى الأخبار والأسمار ، وفى الأنساب . وكانت فى هشام غفلة شديدة ، ومن ذلك

ما رواهُ الخطيب عن أحمد بن إبراهيم قال : « دعانى ابن الكلبىّ يومًا فأقعدنى فى بيت خيش فَرْشُه ميسنانىّ ، وأطعمنى فى يوم حارّ فجلية ، ثم قال لى : لمّا مات أبى ندمَ المأمون أشدَّ ندامةٍ فى الدنيا ! قلت : أكان عذَّبه حتى مات ؟ قال : لا . قلت : فحبسَهُ فى ضيِّقٍ ؟ قال : لا . قلت : فإنّما مات حتف أنفه ! قال : نعم . قلت : فما سبب ندامته ؟ قال : لا والله لا أدرى ، هكذا حدّثنى سعدٌ غلامُنا !

(٧) وعلّانٌ الشعوبىّ ، وكان على عهد الرشيد ، وكان منقطعًا إلى البرامكة ، وكانت له كتب فى المثالب ، مثالب العرب .

(٨، ٩) وإدريس بن سنان ، وولده عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، وجدُّه لأمّه وهب بن منبه ، وكان يروى أيضًا كتب جدّه ، وكتب أبيه ، وله هو كتب ، منها « كتاب المبتدأ » له ، ولأبيه ، وكان عبد المنعم يتلقَّط كتب السير يشتريها من السوق ويرويها ، ما سمعها قطُّ ، ولا سمع من أبيه ولا من غيره ممن يروى عنهم كتبهم . ومات عبد المنعم سنة ٢٢٨. وقد قارب المئة .

وغير هؤلاء القوم كثيرٌ قبل ابن سلام وبعده ، ولست أشكُّ أنهم هم الذين عناهم بقوله فى الكلام المصنوع : « قد تداوله قوم من كتابٍ إلى كتاب » . ولم يبق فى أيدينا ، فيما أعلمُ ، من هذه الكتب وأشباهها إلا ثلاثة كتب : الأول كتاب عبيد بن شرية الجرهمىّ ، والثانى كتاب وهب بن منبه فى الملوك المتوَّجة من حمير وأخبارهم ، وهو المطبوع فى الهند باسم « كتاب التيجان » ، وهو برواية عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى ، نزيل مصر المتوفى سنة ٢١٨ مهذب سيرة ابن إسحق = عن أسد بن موسى الأموى (المعروف بأسد السنة) ، المولود بالبصرة سنة ١٣٢، والمتوفى بمصر سنة ٢١٢= عن عبد المنعم بن إدريس ، عن جدّه لأمه وهب بن منبّه = والثالث كتاب السيرة لابن إسحق ، بعد أن هذَّبَهُ وحذف منه شيئًا كثيرًا ، مهذبه عبد الملك بن هشام . وهذه الثلاثة على قلتها كافيةٌ فى معرفة ما نحنُ فى حاجة إليه لفهم ما أراده ابن سلام فى حديثه عن الكلام المصنوع المفتعل الموضوع على الشعراء .

أما الكتاب المنسوب إلى عبيد بن شرية الجرهمىّ ، فإنا نجد أكثر ما فيه من الكلام الغثّ المصنوع المفتعل ، الذى وصفه ابن سلّام فأجاد صفته . قدرًا كبيرًا منسوبًا إلى عاد وثمود المعرقين فى القدم فى ملوك حمير الفانين ، ونجد معه أيضًا قليلًا جدًّا من غثاء منسوبٍ إلى الشعراء المعروفين ، منهم امرؤ القيس بن حجر الكندىّ (وذكره الطوسىّ فى المنحول من شعره) وأمية بن أبى الصلت ، وحسان ابن ثابتٍ ، وأبياته من صحيح شعره .

أما كتاب وهب بن منبه المعروف اليوم ؛ بالتيجان ، فإنّ ابن هشام راويه ، لم يفعل فيه ما فعل فى سيرة ابن إسحق ، حين عرضها على العلماء بالشعر ، فنفى منها ما أنكروا ، وأثبت أكثر ما صححوه = بل ساقه بغثائه كله رواية عن وهب . وفى كتاب التيجان غثاء كثير أيضًا منسوب إلى عادٍ وثمود وغيرهم من الأمم البائدة التى لم يبلغنا بيقين شىء من شعرهم ، كما صدق ابن سلام فيما قال : « لم يرو قطُّ عربىٌّ منها بيتًا واحدًا ، ولا راوية للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طلاوته » ، ولكنه فى خلال هذه الأخبار التى ساقها شعر صحيح قائم على حياله غير مختلط بغيره ، وشعر صحيح أُدخِل فى غثاء مصنوعٍ . فمن الصحيح القائم وحده على حياله شعر لقيس بن زهير العبسى (٥٢) وشعر للبيد (٧٦) وشعر للربيع بن ضبع الفزارى (١١٨ - ١٢٢، ١٢٤) واللامية التى رُثِىَ بها تأبَّط شرًّا (٢٤٢)= أما الصحيح الذى دخل فى الغثاء فكثير فكأبيات فى قصيدة ذكرها وهب (٢٢٣) ونسبها لشمر يرعش بن ناشر النعم ، ونسبها عبيد ابن شرية (٤٦٩) مع اختلاف كثير جدًّا ، لتبع ملكى كرب . وهذا ليس استقصاءً ، ولكنه اختيارٌ للدلالة على ما في هذه الكتب من الشعر الصحيح المفرد ، ومن الشعر الصحيح المقحم فى الغثاء ، ومن الغثاء المحض .

أما الذى يوضح الأمْر توضيحًا كاملًا فهو ما بقى عندنا من سيرة ابن إسحق ، بعد أن عرضها عبد الملك بن هشام على العلماء بالشعر ونفى أكثر خبثها . وابن سلّامٍ حين ذكر المصنوع ، الذى تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، ضرب المثل بكتبِ محمد بن إسحق ، فمن الواضح أن كلامه عن المصنوع يؤُولُ

على الأرجح إلى مثل ما فى هذه الكتب من الشعر ، ومن الغثاء المصنوع . ونحن نجد فى سيرة ابن إسحق ، التى هذبها ابن هشام ، أوّلا : شعرًا صحيحًا معروفًا لأصحابه من الشعراء ، مما رواه العلماء بالشعر ، وهو كثير .

ونجد أيضًا شعرًا صحيحًا قد خُلِط بغثاءٍ ، فلما عرضه ابن هشام على العلماء ، ميَّزُوا له هذا الصحيح ، ونفوا الغثاء ، ومثال ذلك قصيدة أمية بن أبى الصلت ، أو أبيه أبى الصلت التى يقول فيها : (ابن هشام : ١: ٦٧-٦٩) .

ليطلُب الوِترَ أمثالُ ابن ذِى يَزَنٍ   ريَّم فى البحر للأعداءِ أحوالا

فلما فرغ قال : « هذا ما صحَّ له مما روى ابن إسحق منها ، إلّا آخرها بيتًا قوله : « تلك المكارم لا قعبان من لبن » ، فإنه « للنابغة الجعدى » . فهذا من الصحيح الذى خلط بالغثاء ، وهذا فى التيجان أيضًا ص : ٣٠٦، ٣٠٧. ومن الغثاء المصنوع ما ذكره ابن إسحق فى السيرة ، فذكر منه ابن هشام هذا البيت :

حنقًا على سبطين حَلَّا يثربًا   أوْلَى لهم بعقاب يوم مُفْسِدِ

فقال ابن هشام : « الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوعٌ ، فذلك الذى منعنا من إثباته » ، والشعر بتمامه رواه فى التيجان (١١٢ - ١١٤) فى أبيات طويلة . والأمثلة كثيرة جدًّا فى كتاب السيرة وكلها دال على وجود هذه الأصناف الثلاثة فى الكتب . الشعر الصحيح ، والشعر الصحيح المخلوط بالغثاء ، والغثاء المحض . وحسبنا هذا الآن .

فإذا كان هذا صحيحًا ، وهو صحيح إن شاء الله ، وكانت صورة هذه الكتب عند ابن سلام ، كالذى عندنا اليوم من بقايا هذه الكتب التى أشار إليها بقوله : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب » فقد وَصَلْنا إلى شيء مُهِمٍّ جدًّا ، يجعل تفسير كلام ابن سلام فى الفقرة الثالثة واضحًا كل الوضوح . ويزيل الاختلال الواقع فى ضمائر هذه الفقرة . فقد صحّ عندنا أن فى هذه الكتب ثلاثة أصناف :

الأول : شعر « صحيح » يعرفه أهل العلم والرواية الصحيحة عن أهل البادية ، وهو قائم على حياله ، فى هذه الكتب .

الثاني : شعر « صحيح » ، يعرفونه أيضًا ، ولكنه خُلط بغثاءٍ مصنوع ليس بشعر ، وإنما هو كلامٌ مؤلف معقود بقواف .

الثالث : غثاء مصنوع ، ليس بشعر . كثيرٌ لا خير فيه . وقد وصفه ابن سلامٍ وأجادَ صفته .

قال ابن سلام : « فبدأنا بالشعر ، وفى الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع كثير لا خير فيه ... وقد تداولَهُ قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضُوه على العلماء ، وليس لأحدٍ - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيءٍ منه - أن يقبل عن صحيفة أو يروى عن صحفى » .

وقد أثبتنا بالتحليل إثباتًا لا يداخلُه شَكٌّ ، أن هذا القول محالٌ أن يكون مرادًا به « المصنوع » وحده ، وأشدُّ استحالةً أن يكون مرادًا به « الشعر » كما نعرفُه ببديهة اللغة . وإذنْ ، فلم يبق عندنَا إلَّا الصنف الثانى وَحْدَهُ ، وهو : الشعر الصحيح الذى يعرفه العلماء ، ولكنّه خُلِط بمصنوع ليس بشعرٍ ، فى قصيدة واحدةٍ . فلننظر الآن هل تستقيم الفقرة ، وتصبح كلامًا غير متخالِفٍ ولا متضارب ؛ إذا عادَت الضمائر الأربعة إلى هذا الصنف وحده ؟ فالضمير الأول : « قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب » ،واضح لا يحتاج إلى بيان .

والضمير الثانى : «ولم يأخذوه عن أهل البادية»، صحيح أيضًا، فإنهم لو كانوا أخذوه عنهم لما خالطَه هذا الغثَاءُ ، ولكان مطابقًا لما عند العلماء بالشعر بلا زيادة ، فقد أخذوا جميعًا من مصدر واحدٍ . والضمير الثالث : « ولم يعرضوه على العلماء » ، يجعل الكلام بعودته إلى الصنف الثانى صحيحًا ذا فائدة ، فإنه إذا عُرِض على العلماء ، استخلصوا الصحيح المعروف عندهم ، ونفوا الغثاء الباطل الذى خُلط به . والضمير الرابع فى قوله : « وليس لأحدٍ - إذ أجمع أهل العلم على إبطالِ شىء منه - أن يقبل عن صحيفة ، أو يروى عن صحفى » ، إذا هو عاد أيضًا على هذا الصنف ، استقام معنى الكلام ، وصار تمامًا للكلام الأول بلا غضاضةٍ ، وصار أيضًا للتبعيض فى قوله : « على إبطال شىء منه » ، معنًى ، لأن الذى يبطلونه « بعضٌ » من كُلٍّ ، وهو هذه القصيدة الملفقة بالتخليط . ثم

إن إجماع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطالِ هذا البعضِ ، مفهومٌ ، بل لا وجه لإجماعهم غير هذا الوجه ، وإذا كان هذا الإجماع ، فإنه ليس لأحد بعد ذلك أنَ يقْبل من صحيفة ولا يروى عن صحفيٍّ ، لأنّه إذا فعل ذلك ، وهو غير بصير برواية شعر العرب ، كان خليقًا أن يُفْسِد الشعر الصحيح ويهجّنه برواية هذا الغُثَاءِ ، كأنّه جزءٌ من الصحيح المعروف . ولذلك قال ابن سلام فى الفقرة (٧٣) بعد ذلك بكثير : « وقد وجدنا رواة العِلْم يغلطون في الشعر ، ولا يضبطُ الشعرَ إلا أهلُه » .

وإذن ، فمعنى قوله : « وفى الشعر مصنوع مفتعل ...» هو فى الحقيقة : « وقد دخل بعضَ هذا الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه » ، ويبقى إذن لفظ « الشعر » على بديهته المعروفة ، ويبقى أيضًا أنّه لا يجعل هذا المصنوع « شعرًا » ، لأنه بيّنَ بعد أنه « ليس بشعر، بل هو كلامٌ مؤلف معقود بقواف، وهو ليس قِسْمًا من « الشعر » ولا يقع عليه هذا اللفظُ وقوعًا صحيحًا عند ابن سلامٍ .

وسببُ هذا الخلَلِ فى العبارة هو ما أَفَضْتُ فى بيانه عن الحالة التى كان عليها ابن سلامٍ ، وهو يعيد كتابة النسخة الثانية من كتابه ، فأقحم هذا الفَصْل عن الموضوع ، والفصل الذى يليه عن العلماء بالشعر والعربية ، إقحامًا أخَلَّ بالكلام ، وحيَّرنا فى فهمه . ولكن أشدُّ من هذا أنّ كلام ابن سَلَّامٍ فى رسالة كتابه قد كان سَبَبًا فى فَسادٍ كبير أصاب شعر العرب على يد أوّل المشككين فى الشعر الجاهليّ النافين لصحته ، حين غابت هذه الفقرة من طبعة الأعجمى يوسف هل= وحين ظهرت فى نسختنا ، وفيها هذا الاضطرابُ والخلل ، لم تُعِنْ على تصحيح ما فهم من كلامِ ابن سلامٍ ، لردِّ هذه الفتنة السقيمة ، بل استمرَّ الأمرُ بعد ذلك على اتهام ما بأَيدينَا من شعر العرب الذى نقله إلينا العلماءُ المحققون الجهابذة ، بأن فيه مصنوعًا مفتعلًا ، ثم زاد الأمرُ حتى صارَ بعضُ الباحثين ينفى من هذا الشعر ويُثْبت بلا بينة ولا دليلٍ ، إلا خواطر الاستحسان والاستهجانِ كيف اتّفَقَ . وهذا أسلوب غير مرضيٍّ ولا صالح . ولكن بقيت

الجملة الأخيرة فى ختام هذه الفقرة ، التى يقول فيها ابن سلام : « وقد اختلفت العلماء بعدُ فى بعض الشعر ، كما اختلفوا فى سائر الأشياء ، فأمّا ما اتفقوا عليه ، فليس لأحدٍ أن يخرجَ منه » . وبيِّنٌ بعد هذا أن لفظ « الشعر » ، هو على حاله فى بديهة اللغة ، بلا ريب فى ذلك . وكانت من تمام حديثه ، لأنه حين ذكر إجماع العلماء على إبطال بعض هذا الخليط ، وأنه ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى = أرادَ أنْ يعقب عليه بضرب آخر من اتفاق العلماء على بعض الشعر وعلى اختلافهم فيه ، وبيَّن أن الذى اتفقوا عليه ليس لأحدٍ أن يخرجَ منه . أما الذى اختلفوا فيه ، فله حُكْمٌ آخر . ولكن بَيِّنٌ أن هذا « الاتفاق » ، وهذا « الاختلاف » بمعزل عن الكلام فى « المصنوع الموضوع » لأنه لا يقع عليه بين العلماء اختلاف البتّة ، بل يقع إجماعهم على بُطْلانه بلا نزاع بينهم فى ذلك . وللحديث عن هذا موضع آخر إن شاء اللَّه ، هو به أليق .

من خلال بَحْثى للكشف عن أحد الأوجه الخمسة الملثَّمة ، فى الفقرة الثالثة من رسالة ابن سلام فى صدر كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وهو « وجه الشعر » ، سقط اللثامُ عن وجه آخر ، وانكشفت بعضُ معارفه ، وهو : من هم القوم الذين تداولوا بعض الشعر الصحيح مخالطًا لكلام مصنوع مفتعل ليس بشعر ، إنما هو كلامٌ مؤلف معقود بقوافٍ كقوافيه . وعرفنا بعض هؤلاء : عبيد ابن شرية الجرهمى ، ووهب بن منبه ، وابن إسحق صاحب السيرة ، والشرقى بن القطامىّ ، وابن الكلبىّ ، ولهم أشباهٌ كثيرة ممن كانوا يسوقون أخبار الجاهلية القديمة ، ولم يأخذوا ما فيها من الأشعار عن أهل البادية ، ولم يعرضوا هذه الأشعار على العلماء بالشعر ، فيميِّزوا لهم الصحيحَ المعروف لأصحابه من الشعراء ، مما خولط به من الغثاء المولَّد المفتعل . وهؤلاء هم الذين أثبتوا تلك الأشعارَ فى كتب تداولوها من كتاب إلى كتاب ، أو تناقلوها روايةً ، ثم نقلت عَنهم وأثبتت فى الكتب .

وبقى بعد هذا وجه ثالثٌ من الوجوه الخمسة الملثمة ، وهو الذى جاء فى كلام ابن سلام حيث يقول : « وليس لأحدٍ ، إذا أجمع أهل العلمِ على إبطالِ

شيء منه ، أن يقبلَ من صحيفة أو يروى عن صُحُفِىّ » ، فذكر « الصحيفة » و« الصحفىّ » ، و« الصحيفة » فى العربية ، هى كُلُّ ما يكتب فيه ، وقد جاءت على هذا المعنى فى كتاب الله تعالى فى آيات . يقول الله تعالى فى سورة طه (١٣٣) يذكر مقالة مشركى قريش وغيرهم من العرب : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، و« الصحف الأولى » هى كتب الأنبياء فى أُمَم قَد خَلَتْ من قبلهم ، كصحف إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وهى المذكورة المبيّنة فى قوله تعالى فى سورة النجم ٣٦، ٣٧: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ ، وفى قوله تعالى فى سورة الأعلى : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وسمّى الله سبحانه القرآن العظيم « صُحُفًا » فى قوله فى سورة عبس : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ ، وكذلك قال فى سورة البينة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ . ولما أفتى أبو بكر رضى الله عنه بكتابة القرآن سمّى كتاب الله « مُصْحَفًا » ، لأنّه عندئذ سِفرٌ جامعٌ للصُّحف بين دَفَّتين ، وكُلُّ مُصْحفٍ كتابٌ . وقد جاء ذكر « الصحيفة » فى شعرٍ كثيرٍ من أشعار العرب ، وفى أخبارهم ، وأشهرها « صحيفة الملتمس » التى يقول فيها الفرزدق لنفسه :

أَلْقِ الصَّحِيفَةَ يا فرزْدَقُ، لا تَكُنْ ... نَكْدَاءَ مثلَ صحِيفة المُتَلَمِّسِ

فكان مفهومًا من نَهْى ابن سلام كُلَّ أحدٍ أن يقبلَ من صحيفة ، أنّه نهىٌ عن قبول شعر العرب من كتابٍ مكتوب ، وهو يعنى بذلك ما ذكره قبلُ حيث قال :« وقد تداولَهُ قومٌ من كتاب إلى كتابٍ » ، ولا يَعْنى كُتُبَ العلماء بالشعر ، لأنها غير داخلةٍ فى حديثه هنا عن الموضوع المفتعل المصنوع .

وأمَّا « الصُّحُفِىّ » ، فهو الذى يَرْوِى هذا الغثاء من قراءة تلك الصحف ،

فنهىُ ابن سلام عن الرواية عن « الصحفى » نهىٌ عن الأخذ والرواية عمَّن يعتمد فى رواية الأشعار على هذه الكتب المؤلفة التى فيها شعر « صحيح » خولِط بغثٍّ من الكلام ردىءٍ، منسوبًا إلى المعروفين من شعراء العربِ، فإن شرط رواية شعرهم أن يأخذه سماعًا من أهل العلم والرواية الصحيحة. وقد بيّن ذلك ابن سلّام نفسُه حيث قال فى آخر الفقرة الثالثة عشرة: « فلو كان الشعْرُ مثلَ ما وضِع لابن إسحق، ومثل ما رَوَى الصُّحُفيون، ما كانت إليه حاجة، ولا فيه دليلٌ على علم » وقد روى ابن سلام وغيره أن ابن إسحق قِيل له فيما يرويه من هذه الأشعار، فقال يعتذر منها: « لا عِلْمَ لى بالشعر، أُتِينا به فأحمله » ولم يكن ذلك له عُذْرًا، كما قال ابن سلامٍ. وهذا قدرٌ كاف، إن شاء الله، فى الكشف عن هذا الوجه، ومع ذلك فقد بقِيت أشياءُ كان يمكنُ أن تدرسَ فى أمر هؤلاء القوم، ولكنها تخرج بى عن الحدِّ الذى وضعتُه فى دراسة رسالة ابن سلام فى صدر كتابه الطبقات.

* * *

بقى إذنْ من الوجوه الخمسة الملثمة وجهان، يحتاجان إلى فَضْل بحثٍ وتأمُّل، لكى نبلُغ الغاية فى إزالة كلِّ لَبْس يعرضُ فى فهم كلام ابن سلّام، وقد عَرَضَ هذا اللَّبس، فأدّى إلى أكبر الفسادِ فى شأن الشعر الجاهلى. وأول هذين الوجهين: « العلماء »، الذين كان ينبغى على الذين تداولوا الأشعار المختلطة من كتاب إلى كتاب، أن يعرضوها على هؤلاء العلماء، والذين سماهُم ابن سلام أيضًا « أهل العلم والرواية الصحيحة، الذين إذا أجمعوا على إبطال شىء من هذا الخليط، لم يكن لأحدٍ بعد إجماعهم أن يقبلَ من صحيفة أو يروى عن صحفىّ » وثانى الوجهين: « أهلُ البادية »، الذين قال ابن سلامٍ إن هذه الأشعار لم تؤخذ عنهم.

ذكرتُ قبلُ أن ابن سَلَّامٍ إنما أُعْجِل عن أناته، فأقحم هذه الفِقَر من الفقرة الثالثة إلى الثلاثين، لأنه كان قد بدا لَهُ أن يتمِّم تأسيس « علم الأدب والشعر »، بتأليف كتبٍ عزم على أن يؤلفها بأخَرة بعد أن طعن فى التسعين.

وهو ببغداد ، وأنه حين لقى يومئذٍ يحيى بن معين وأضرابه من أئمة الجرح والتعديل ، الذابّين عن سنة رسول الله ﷺ ، أرادَ أن يجعل المدخل إلى هذا العِلم كتابًا ككتب رجال السُّنّة فى بيان وجوه الزيْف والتكذّب على حديث رسول الله ﷺ ، وفى بيان مراتب العلماء الجهابذة من نقلة الآثار ومنازل سائر النقلة من الحجة والثقة والضعف ، وما عُرِف من الكذابين والوضاعين . وقلت أيضًا ، إنه عندما بدأ إعادة كتابة النسخة الثانية من « طبقات فحول الشعراء » ، أحسّ بالخوف أن يُعْجِله الأجل عن تأليف كتاب جامع قائم برأس يجعله مدخلًا لعلم الأدب والشعر ، فأسرع يجمع فى هذه الفقر القلائل من الثالثة إلى الثالثة عشرة خلاصة بعض ما يريدُ أن يقوله عن الكلام المصنوع المفتعل الموضوع منسوبًا إلى الشعراء ، ثم خلاصة موجزة أُخرى فى مراتب العلماء بالشعر من الفقرة الرابعة عشرة إلى الفقرة الثلاثين .

وبدأت الفقرة الرابعة عشرة بقوله : « وكان لأهل البصرة فى العربية قُدْمة (أى تقدُّم وسبقٌ) ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية » ، ثم سَرَد مُوجَز أسماءِ من اختارَ ذكرهم من علماء البصرة ، وقليلًا من أخبارهم ، حتى انتهى ، فختم الفقرة الثلاثين بذكر رجلٍ واحدٍ من علماء الكوفة فقال : « وأعلمُ من وردَ علينا من غير أهل البصرةِ المفضَّل بن محمد الضبى الكوفىّ » ، ولم يَزِدْ على ذلك شيئًا البتة ، مجرّدُ ذكرٍ ، مع أن المفضّل قديمٌ فى طبقة يونس بن حبيب والخليل ، لأنه توفى بعد سنة ١٧٠ تقريبًا ، وكأنه لم يَرد عليهم البصرة إلا قبل ذلك ، وابن سلام يومئذٍ فى نحو الثلاثين من عمره ، فلم يذكر أحدًا من الكوفيين غيره وردَ البصرة ما بين سنة ١٧٠ إلى ٢٢٢، حتى فارق البصرة إلى بغداد ، وهذا عجيبٌ من فعل ابن سلام !!

وظاهر إذنْ أنه أرادَ بقوله « العلماء » فى أول هذه الفقرة الثالثة ، مَن ذكرهُم هو من أئمة العربية من أهل البصرة ، وبعض من لم يذكُرْ منهم ، وظاهرٌ أيضًا أنّه لم يَحْفِلْ كثيرًا بذكر علماء الكوفة ، فاقتصر على رجل كوفى واحدٍ كان قدم عليهم البصرة ، ورآه هو وسمعَ منه فى صدر حياته . ولا أظنُّ أنّه أراد بذلك

أن يستوعبَ القدحَ فى علماء الكوفة، أو أن ينفى عنهم العلم بالشعر نفيًا شاملًا، بل احتمله ضربٌ من العصبيّة لأهل بلدته التى نشأ فيها وعاشر أهلها وعلماءها أكثر من ثمانين سنة. فإنه لما نزل بغداد سنة ٢٢٢، واحتفى به الناسُ والأشراف والعلماءُ، رأى فيما رأى طبقةً من أهل العِلْم من البغداديين، قد سوَّوا فى العِلْم بين علماء البصرة وعلماء الكوفة، وأخذوا عن هؤلاء وهؤلاءِ، ووازنوا بين أقوالهم، ومَيَّلوا بين مذاهبهم، فَرجَّحوا مرة مقالة أهل البصرة على أهل الكوفة، ورجَّحوا أخرى مقالة أهل الكوفة على أهل البصرة، فساءت ابنَ سلام هذه المساواة بين علماء البصرة وعلماء الكوفة، وهذا الترجيحُ الذى يؤثر أحيانًا قول أهل الكوفة على قول أهل البصرة، فأرادَ أن يَخُصَّ علماءَ البصرة وحدهم بالفضل كُلِّه، لُيظهر زهْوهُ بفضل أهل بلدته على الناسِ وعلى العلماء وعلى العلم. وابن سلام معذورٌ فى هذا الزهو، وفى الخيلاءِ بأهل بلدته، لأنه شهد بالبصرة عصرًا زاخرًا يعبُّ عُبَابُه، عصرًا وضعت فيه أصولُ علوم الإسلام كُلِّها، نعم، كان لأهل الكوفة ولسائر مُدُنِ العربية والإسلام نصيبٌ من هذا البَحْر الرجَّاف، ولكن ابن سلّام رأى أن نصيبَ أهل البصرة هو النصيبُ الأوْفى الذى لا يشاركُهم فيه غيرهم، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وهو إمامُ أهل البصرةِ فى زمانه هذا (ما بعد سنة٢٢٢)، وهو قد جاوز الثمانين من عُمُره، وهو أيضًا الذى عاش بالبصرة ما بين مولده سنة ١٣٩، إلى أن نزل بغداد سنة ٢٢٢، فرأى جبالَ العِلْم جَبلًا بعد جَبَل، سمعهم وَأَخَذَ عنْهم وشهد مجالسَهُمْ. كان قريبًا شاهدًا حاضرًا يرى جَبَلًا من العِلْم تتحدَّر عليه ومنه أمواجٌ بعد أمواج، يَرِد شرائعَها طلاب العِلْم ويصدرون عنها رواءً، ثم يغيبُ الجَبَل، وإذا جبلٌ آخرُ يرثُه ويزيدُ عليه، وتتلاطمُ الأمواج، ويتقاصف عليها الوُرَّاد من آفاق الأرض، ثم يغيب، ويقوم غيره. وهكذا دواليك. فقد ابن سلام فى صدر شبابه أبا عمرو بن العلاءِ حين هَوَى، ثُمَّ شمخ عيسى بن عمر الثقفى جبلًا شامخًا تتدفقُ أمواجُه حتى كاد يُنسى أبا عمرو، ثم يذهب عيسى أيضًا، ويأتى يونس بن حبيب، والخليل بن أحمد، ويذهبان، وحالُه عند فقدان كُلّ واحدٍ منهم حال النابغة عندما مات حصن بن حذيفة الفزارى:

يقولونَ: حِصنٌ! ثم تأبَى نُفُوسُهُمْ   وكيف بحِصْنٍ، والجبالُ جُنُوحُ
ولمْ تَلْفِظِ الأرضُ القبورَ، ولم تَزُلْ   نجومُ السَّمَاءِ، والأديمُ صحيحُ
فعمّا قليل، ثم جاش نَعِيُّهُ   فباتَ نديُّ القوم وهْو يَنُوحُ

ثم تَنْجلى غمرة الأسى على يونس والخليل، عن زميله وصديقه سيبويه، فإذا جَبَلٌ يؤسِّس علم الخليل ويونس وأبى زيد الأنصارى تأسيسًا لا مثيلَ لَهُ من قبلُ ولا شبيه! كان ابن سلّام قريبًا من هذا كُلِّه يراهُ ويَسْمعه، فتأخذ بلُبِّه هذه الأنوار المتلألئة، فيرى البصرة وحدها مَنْبع نور ساطعٍ تَمُوت فيه الأنوار.

فلا جرَم، إذنْ، أن يكون العلم عنده هو علمَ البصرة، والحجةُ الظاهرة هى حُجَّة البصرة، وكُلّ ما سوى البصرة فهو لها تَبعٌ. فما هؤلاء البغداديون المحدَثون الذين يقايسون علماء البصرة بعلماء الكوفة؟ وما هذا المذهب المبتدعُ فى ترجيح مذهب أهل الكوفة على مذهب أهل البصرة؟ وأين هؤلاء من هؤلاء؟ هذا ما أظنُّه كان قائما فى نفس شيخنا محمد بن سلام رحمه الله، وهو يكتب هذه الفِقر عن مراتب علماء البصرة، مقتصرًا على واحد من أهل الكوفة.

ولكنه، بلا ريبٍ، حين ذكر العلماء، فى أول هذه الفقرة الثالثة، لم يعن إلا العلماء بالشعر، ولذلك قال فى أوّل الفقرة التاسعة والعشرين، بعد أن فرغَ من ذكر جمهرة من علماء البصرة ومراتبهم: «رُجِع إلى قول الشعر، وإلى قول العلماء فيه، ولكُلّ من ذكرنا قولٌ فيه» وهذه كلمةٌ مهمّةٌ جدًّا، لا يجوزُ إغفالها، لأنّى رأيت أكثر أهل العلم قديمًا وحديثًا يظنُّ أن هذه الفِقر التى جمع فيها ابن سلام ذكر طائفة من علماء البصرة، وبدأ بذكر أبى الأسود الدؤلى، فقال: «وكان أوّل من أسَّسَ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها»، ثم ختم ذكر العلماء بالخليل بن أحمد الفراهيدىّ فقال: «ثم كان الخليل بن أحمد ... فاستخرجَ [من] [1] العروض واستنبط منه ومن علله ما لم

---

(١) وضعت [من] بين علامتى الزيادة، كما وضعها شيخنا فى الطبقات ص٢٢ [محمود الطناحى].

يستخرج أحد ، ولم يسبقه إلى مثله سابقٌ من العلماء كُلِّهم » = أقول يظنُّ أكثر القدماء والمحدثين أنّ ابن سلام كتب هذا وأثبته فى كتابه رغبةً منه فى ذكر مراتب النحويين البصريين ، لأن جملةَ من ذكرهم من النحاة المقدَّمين المعروفين ، ولجميعهم « فى العربية قُدْمة ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية » ، كما قال ابن سلام حين بدأ فى ذكر « العلماء » فى الفقرة الرابعة عشرة .

وهذا خطأ صِرفٌ ، لم يُرِد ابن سلام أن يضع فى كتابه شيئًا فى مراتب النحويين البصريين . ولو كان ذلك أراد ، كان خليقًا أن يختم هؤلاء الذين ذكرهم ، لا بالخليل بن أحمد ، بل بصديقه وخليله سيبويه ، الذى جمع علم الخليل وعلم من كان معه ومن سبقه ، وأسَّسَ علم النحو فريدًا على غير مثال سابق ، وفى أوّل كتابٍ بَحْرٍ جامع ، طارت شهرتُه فى الآفاق منذ عرفه الناس ، إلى أن قصد الناسُ قرينه وصاحبه الأخفش سعيد بن مسعدة (المتوفى سنة ٢١٠) ليقرأوا « الكتاب » عليه ، وشهد ذلك ابن سلام نفسه ، فهو أحقُّ بأنه يُزْهى به ابن سلام فى هذا الموضع ، ويختم به ذكر علماء البصرة من النحاةِ . ولكنه لم يرد النحاة ، فلذلك تركه ولم يذكره .

ونعم ، كان أكثر الذين ذكرهم فى هذا الموضع نُحاةً أئمة ، ولكنه لم يُرِد نحوهم ، بل أراد علمهم بالشعر . والناسُ قديمًا وحديثًا يتوهمون أنّ النحاة بمعزل عن علم الشعر وروايته ، وإذا صحَّ هذا فى زمنٍ متأخِّرٍ ، فإن ذلك الزمان الأوَّل المتقدّم قاضٍ على النُّحاةِ بأن يكونوا بالمنزلة العالية من علم الشعر ومن روايته . فإنهم حين أرادوا أن يضعُوا للعربية « نحوًا » جامعًا ، على غير مثالٍ سابقٍ ، لم يكن لهم إلى ذلك سبيلٌ إلّا بتتبُّعِ كَلام العربِ جميعًا ، على اختلاف مَنازلهم ، واختلاف لهجاتهم ، واختلاف لُغَاتِهم واختلاف أزمنتهم منذ الجاهلية القديمة إلى زَمَانِهم الذى هم فيه ، ولا سبيل إلى ذلك إلّا باستقصاء كلامهم ، وأهمُّ كلامهم كُلِّه كان هو « الشِّعر » . فلذلك كان همُّ جميع من ذكرهم ابن سلام منذ أبى الأسود إلى الخليل ، أن يتتبَّعُوا الشِّعر مع التوثُّق من صحته ، وأن يستقصُوا ذلك استقصاءً تامًّا ما استطاعوا ، وأن ينظُروا فيه نظرًا فاحصًا يجمَعُ

النظائِر فى كُـلِّ بابٍ من أبواب أساليب الكلام وأبنيتها وتصاريفها، لكى يستطيعُوا أن يؤسسوا العِلْمَ على أُصُولٍ لا تختلفُ ولا تضطربُ. وقد بلغ جميعهم، على اختلاف أزمنتهم، غايةً ليس لها مثيل فى تاريخ لغات البشر إلى يومنا هذا. والأصل الذى بنَوْا جميعًا عليه هو «الشعر». ولولاه لما استطاعوا أن يفعلوا ما فعلوا، ولما كان النحو الذى نعرفه اليوم، ولضاعت اللغة، ولذهب كل علمٍ بلغات العرب وغريب كلامِها فى أساليبها وفى تصاريف ألفاظها. وأيَسرُ مراجعةٍ لكتاب سيبويه الذى عقد له الخليل بن أحمد عَقْدَهُ الذى لا يختلُّ، دالَّةٌ على أنّ الشعر، كان هو مَصدرَ هذا العلم كُلِّه.

وإذا كان ابن سَلَّام قد احتملهُ الزّهو بأهل البصرة، حين نزل بغدادَ، وهو يومئذٍ إمام البصرة، فذكر فى عبارته ما يُوهِم أنّه ذاكرٌ «نحاة» لا حملةً للشعر، فإنّ هذا الزَّهوَ كُلَّه مصروفٌ إلى أنهم كانوا أوّل من أسّسَ علم العربية. أمّا الذى يريدُه، فهو ما يَدلُّ عليه تاريخ تأسيس النحو، وهو «الشعر». بدأ ابن سلام بأبى الأسود الدؤلى، وهو مخضرمٌ أدرك الجاهلية والإسلام حتى توفّى فى الطاعون الجارف سنة تسع وستين، ويقالُ إنه مات عن خمسٍ وثمانين سنة، فكأنه ولد قبل البعثة بثلاث سنوات، وقبل الهجرة بستّ عشرة سنة. فلما نزل البصرةَ وبدأ هذا العلم، وهو قليلٌ جدًّا كما هو معروف، أخذه عنه يحيى ابن يعمر العدوانى، فيما يقول ابن سلام، وأنا لا أشكُّ أن هذا القليلَ لا يؤخَذُ إلا على وجه واحدٍ: أن يكون أخذ عنه «الشعر» أوَّلًا، ثم أخَذ عَنْه هذا القليلَ لينمِّيهُ بتتبّع «الشعر» والنظر فيه.

ثم أخذ ذلك عن يحيى «قتادة بن دعامة السدوسىّ» وميمونٌ الأقْرن، وعنبسة الفيل، ونصر بن عاصم الليثى، وأخذ عن هؤلاء عبد الله بن أبى إسحق الحضرمىّ، المتوفى سنة ١٢٧ عن ثمان وثمانين سنة، ومعه أبو عمرو بن العلاء الذى بقى بعد ابن أبى إسحق بقاء طويلًا حتى توفى سنة ١٥٩، وقد أخذ ابن سلام نفسُه عن أبى عمرو، كما أخذ عنه أيضًا عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٥٠. وأخذ عن أبى عمرو: يونس بن حبيب، المولود سنة ٩٠، والمتوفى

سنة ١٨٢، ومعه مَسْلمةُ بن عبد الله بن سعد بن محارب الفهرىّ ،وهو مسلمة النحوىّ ، وجُمع عِلم هؤلاء جميعًا فى صَدْر الخليل بن أحمد الفراهيدىِّ ، فكان أمةً وحدَهُ ، حتى توفى سنة ١٧٥ عن أربع وسبعين سنة ، هكذا ساقهم ابن سلام ، فهؤلاء هم نقلة الشعر بالبصرة ، وجُمّاعةُ الذين تلقّوه وزاد بعضهم على بعضٍ ، يتوارثونه خلفًا عن سلفٍ ، قبل أن يبدأ تاريخٌ آخر لنقل الشعر بالبصرة ، على يد أبى مُحْرز خلف بن حيان الأحمر ، وكان فى زمان الخليل ، وتوفى سنة ١٨٠، ثم الأصمعى ، المتوفى سنة ٢١٦، عن ثمان وثمانين سنة ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، المولودِ سنة ١١٢، والمتوفى سنة ٢١١، فى حياة ابن سلام ، فهؤلاء بدأوا طريقًا آخر لجمع الشعر وَتَتَبُّعِه غير طريق السابقين من علماء الشعر بالبصرة . فما هو هذا الأخذ الذى ذكره ابن سلام ؟

* * *

ويحسُن بنا قبل كل شىء ، أن نحاولَ معرفة طريق هؤلاء السابقين الأولين من علماء البصرة ، فى أخذ بعضهم عن بعض وفى جمع الشعر ، على وجه الإِيجاز ، ولكنْ أحسنُ الرأى عندى أن نبدأ بما كان عليه الأمر على عهد رسول الله ﷺ ، لتكونَ الصورة أوضح ، فإنّ أصحابه كانوا جميعًا ممن شهد الجاهلية وعاش فيها دهرًا طويلًا .

١ - روى مسلم فى صحيحه فى كتاب الشعر ، والبخارى فى الأدب المفرد ، عن عمرو بن الشَّريد ، عن أبيه الشَّريد بن سويد الثقفى قال : « ردفتُ رسول الله ﷺ يومًا ، فقال لى : هَلْ معك من شعرِ أمية بن أبى الصلت شيئًا [1] ؟ قلت : نعم ! قال : هِيه ! فأنشدته بيتًا ، فقال : هيه ! ثم أنشدته بيتًا فقال : هيه ،

---

(١) هكذا أثبته شيخنا « شيئا » بالنصب ، وكذلك جاء فى صحيح مسلم ص١٧٦٧، وقال النووى فى شرحه ١٥/ ١٢ « هكذا وقع فى معظم النُسخ « شيئًا » بالنصب ، وفى بعضها « شىء » بالرفع ، وعلى رواية النصب يُقدَّر فيه محذوف ، أى : هل معك من شىء فتنشدنى شيئا ».

[محمود الطناحى] .

حتَّى أنشدته مئة بيت » ، هذا لفظ مسلم ، ولفظ البخارى : « حتى أنشدتُه مئة قافية » .

٢ - وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وابن أبى شيبة ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : « لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزِّقين ولا متماوتين ، وكانوا يتناشدون الشعر فى مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدٌ منهم على شىء من أمر الله (أو على شىء من دينه) دارت حماليق عينيه كأنه مجنون » .

٣ - وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وابن سعدٍ والترمذىّ ، وصحّحه ، من حديث جابر بن سَمُرة (كوفىّ) قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله ﷺ ، وربما تبسَّم معهم .

٤ - ومن طريق عبد الرحمن بن أبى بكرة : « كنت أجالس أصحابَ رسول الله ﷺ مع أبى فى المسجد ، فيتناشدون الأشعار ويذكرون حديث الجاهلية » .

٥ - وأخرج ابن سعد وغيره من طريق قتادة قال : سمعت مطرِّفًا بن عبد الله بن الشِّخِّير يقول : خرجتُ مع عمران بن حصين من الكوفة إلى البصرة ، فما أتى علينَا يوم إلّا ينشدنا فيه شعرًا » ، هذا لفظ ابن سعد ، ولفظ غيره : « فقَلَّ منزلٌ ننزلُه إلّا وهو ينشدنى شعرًا » .

وهذا قدرٌ كاف فى الدلالة ، مغنٍ عن ذكر أبى بكر رضى الله عنه وعلمه بأنساب العرب وأشعارها ، وعن ذكر عمر رضى الله عنه . وقلَّ أمرٌ إلا ذكر فيه شعرا . وما كان من علم أمِّ المؤمنين عائشة وكثرة ما تحفظ من أشعار العرب ، فأكثر هذا معروفٌ ممكن جمعُه ، فهكذا إذن كانَ حالُ أصحاب رسول الله ﷺ فى حياته ، وهم يتلقَّون وَحْى الله ويتفقَّهون فى أمر دينهم ، ويغزون مع رسول الله ﷺ الغزوات ، وجروا فى ذلك على عادتهم التى كانوا عليها فى جاهليتهم ، وعادة آبائهم من قبلهم قرونًا متطاولة . وهؤلاء الصحابة كانوا يومئذ

من جميع قبائل العربِ من شمالها وجنوبها وشرقها وغربها . فلما قُبض ﷺ ، وقام بالأمر أبو بكر ، وتَهدَّمتْ الردّة حين هدمها أبو بكر وسائر صحابة رسول الله ﷺ ، ثم قام بالأمر عمر بن الخطاب ، وامتدَّت الفتوح شرقًا وغربًا ، وخرج الصحابة وسائر من أسلم من العرب فى فتوح الإسلام ، من كُلِّ قبيلة وعشيرة وبطنٍ ، وتفرَّقُوا فى الآفاقِ ، وضربَ الإسلامُ بجِرانه فى كُلِّ ناحية من الأرض ، كان هؤلاء العربُ على عادتهم التى كانوا عليها فى جاهليتهم ، وعلى عهد رسول الله ﷺ فى تناشد الأشعار فى مجالسهم ، وتذاكُر أمر الجاهلية . ثم بدأ عُمَر فى تمصير الأمصارِ ، ومُصِّرت البصرة والكوفة على عهده ما بين سنة ١٧، ١٩هـ ، فنزل الصحابة هذه الأمصار فى الآفاق على اختلاف قبائلهم ومواطنهم ، ونزل سائر العرب الفاتحين من المخضرمين الذين شهدوا الجاهلية ولم يصحبوا رسول الله ، وسكنوا الأرض واستقروا بأهليهم وولدهم ، ثم امتدَّتْ بهم أيام الاستقرار ، وتكاثر الناس ، فكانوا فى هذه الأمصار على عَهْدهم فى ذلك كُلِّه ، وتوارث ذلك عنهم أبناؤهُم وأهل المدن التى هم فيها . فلمّا كان زمانُ أبى الأسود الدؤلى ، على عهد على بن أبى طالب ، وبدأ يؤسس العربيّة ، ويفتح بابها ، وينهجُ سبيلها ، ويضع قياسها ، كما قال ابن سلام ، زادت حاجتُه وحَاجة أصحابه إلى تقصِّى الشعر المنحدِر مع حملته من الجاهلية . فمن يومئذ افتتح ناشئة المسلمين بابًا جديدًا لحفظ شعر الجاهلية عن الصحابة وكبار التابعين ، لا فى البصرة وحدها ، بل فى الكوفة أيضًا وفى سائر الأمصار التى نزلها المسلمون من عَرَبِ الجاهلية .

كانت الكتابةُ قد انتشرت فى جميع أمصار الإسلام ، كما قلت آنفًا ، فكانَ التابعون يكتبون لأنفسهم أكثر ما يسمعون من حديث رسول الله ﷺ ، استعانةً بذلك على الحفظ لا أكثر ، فأصبح تقييد المَسْموع أمرًا منتشرًا فى النّاسِ ، لا على وجه التأليف والتصنيف ، بل لمجرد التذكّر والحفظ ، وكما كان الناسُ شديدى الحفاوة بحفظ مآثر جاهليتهم ، وشعر شعرائهم ، كان سبيلهم فى ذلك سبيل ما ألفوه فى تقييد الحديث ، لمجرّد التذكُّر والحفظ ، وكلُّ امرىء يكتب لنفسه لا للناس . ويحسن هنا أن نذكر كلام ابن سلام نفسه فى كتاب

الطبقات ، فى الفقرة الثانية والثلاثين ، يقول :

« وكان الشعر فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ، ومنتهى حُكْمِهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون . قال ابن سلام : قال ابن عون ، عن ابن سيرين قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه = قال ابن سلام : فجاء الإِسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولَهَتْ عن الشعر وروايته . فلما كثر الإِسلامُ ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العربُ بالأمصارِ ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يَؤُولُوا إلى ديوانٍ مدوّنٍ ، ولا كتابٍ مكتوبٍ . وألفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلَّ ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » .

ولا شكَّ فى صحة هذه المقالة ، إلّا أنّى لا أرى الأمر كما زعم ابن سلام : أن العربَ لهتْ عن الشعر وروايته بتشاغلهم بالجهاد وغزو فارس والرُّوم ، فإنهم لم يلهَوْا عنه فى أوّل الإِسلام على عهد رسول الله ﷺ. مع وفرة الدواعى إلى اللهو عنه ، فأحرى أن لا يلهَوْا عنه فى زمن الفتوح الأُولى . وهذا اللَّهْو عن الشعر الذى زعمه ابن سلام ، إنما أراد به أن يفسِّر معنى ما رواه هو بعدُ فى الفقرة الثالثة والثلاثين فى قِلّة ما بأيدى الناس من الشعر ، وذلك فيما رواه عن يونس بن حبيب قال : « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكُمْ مما قالت العربُ إلّا أقلُّه ولو جاءَكم وافرًا لجاءكم علمٌ وشعر كثيرٌ » والعلة الصحيحة فى قلَّته هو ما قاله ابن سلام نفسه مِن هلاكِ مَن هلك بالموت والقتلِ ، وما يعرضُ للحفّاظِ من المرضِ والضَّعف والفتور ، والخروج فى الغزواتِ ، والتنقُّل فى البلدانِ الغريبة ، وقلَّة اهتمام بعض السامعين بحفظ ما سمعوا أو تقييدِه حتى لا يُنسى ، فى الوقت بعد الوقت . وهذا شىء يحتاج إلى بيانٍ ليس هذا موضعَه . ولكن المهمَّ فى كلام ابن سلام هو قوله : « فلما كثر الإِسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، ولم يَؤُولُوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب » .

فهذه العبارة صادقة كلّ الصدقِ فى جوهرها ، ولكن إذا بطل ما بُنيتْ عليه ، وهو أن العرب « لهت عن الشعر وروايته » وتشاغلت عنه بالغزو والجهاد ، بطل منها لزامًا قوله : « راجعوا رواية الشعر » ، لأنه إذا بطل أصل القضية وهو « اللهو » عن رواية الشعر ، بطل الفرعُ ، وهو مراجعة روايته بلا ريبٍ ، وإذن فهم لم ينقطعوا عن روايته فى زمنِ الغزو والجهاد ، فلما استقروا واطمأنوا بالأمصارِ ، صارَ اهتمام الناسِ بروايته أتمَّ وأوسع . فالصواب إذن أن يحلَّ محل قوله « وراجعوا رواية الشعر » : « اتسع الناس فى رواية الشعر » ، وهذا هو المطابق لطبيعة الحياة وسيرة الناس فيها ، فمع تجمُّع العرب فى الأمصار من مختلف القبائل ، ومع الاطمئنان والاستقرار فيها ، ومع تكاثر الناشئة من الأبناء الذين يطلبون العِلْم ، أعنى العِلْم بأخبار آبائهم وأخبار ما كانوا عليه فى الجاهلية ، والعلم بشعر شعرائهم فى الجاهلية ، وهو ديوانهم ومنتهى حكمتهم ، والذى قال فيه عمر رضى الله عنه : « كان الشعر علم قومٍ لم يكنْ لهم علمٌ أصحُّ منه » ، مع هذا كُلِّه ممّا يطابق سيرة الناس فى الحياة ، كَثُرت رواية الشعر واتسعت فى هذه الأمصار الحديثة النشأة ، كالكوفة والبصرة ، وهُمَا فى دور التكوُّن والاتساعِ ، ولكن هذا لم يكنْ ، إلا بعد حروب الردّة التى هلك فيها من هلك من العرب الذين كانوا فى الجاهلية ، ثم بعد هلاكِ عددٍ آخر منهم على اختلاف قبائلهم فى زمنِ الحروب بين عليٍّ ومعاوية رضى الله عنهما . فكان ذلك سببًا فى ضياع كثير من شعر الجاهلية وسقوطه عنا ، ولذلك قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّاَ أقلُّه ، ولو جاءكُمْ وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير » . وهى أيضًا مقالة صادقة كلَّ الصدق ، يدلُّ على صدقها ما نجده اليوم بين أيدينا .

ومع أن هذا هو المطابق لطبيعة الحياة وسيرة الناس فيها ، ومع أن تطلُّب الأبناء أخبارَ الآباء وأشعارهم فى جاهليتهم مطلبٌ صحيح قائم فى النفوس ، وفى نفوس العرب خاصةً ، فإن الأمر كان أجلَّ من ذلك ، ولكننا نغفلُ عنه ، ولا يُدْخِلُه أحد من المحدَثين فى البحث عن أمر الشعر الجاهلِّى إلّا رَمزًا ، وسبب هذا الإِغفال ، فيما أرجّح ، أمران : أولهما : اتباع مناهجَ سقيمةٍ سيئة مُجتلبة ،

مبنيَّةٍ على التقليد، وهى فى ذاتها لا تصلح للدراسة الأدبية فى هذه اللغة وفى تاريخ أصحابها، مع ما فى التقليد من الضعف والتهافت عن أسلوب الباحثين الذين يقلدونهم. وثانيهما: أن الأمر غامضٌ بعض الغموض، لأنه يتعلّق بدخيلة نفوس ذهبتْ منذ قرون، لم يشهدها منا أحدٌ فَيَتَثَبَّتَ إلى توسّم معالمها وخوافيها، ولأن أصحاب هذه النفوس، لم يتحرَّوا أن يبينوا عن مكنونِ أنفُسهم فيما وصل إلينا من مأثور أقوالهم، إلّا لمحًا خفيًّا فى قليلٍ من الأحيانِ، فهو حَرِىّ أن يتجاوزه النظر، دون أن يشعر بخطرِه أو فائدته فى الدراسة.

وبيانُ ذلك أن الله سبحانه حين اصطفى من البشر محمدًا ﷺ، وابتعثه من العرب رسولًا نبيًّا، لم يجعل له سبحانه آيةً على نبوّته كآيات الأنبياء من قبله، بل آتاهُ آيةً واحدةً، كتابًا عربيًّا منَجَّمَ التنزيل على مدٍّ ثلاث وعشرين سنة، يقرأُه على الناس على مُكْثٍ، وطالبَ السامعيه أن يُقرُّوا أنّ هذا الكلام العربىّ المنزّلَ، هو كلامُ الله سبحانه، وأنه وإن كان جاريًا على أساليبِ لُغَتهم، فإنه مفارقٌ لكلام البشر، بدليل ظاهرٍ قاهرٍ هم قادرون على تبيُّنه واستظهاره. فإذا تبينوا ذلك، فالتَّاليةِ عليهم، وهو رجُل من أنفُسهم، نبىٌّ مرسلٌ مبلِّغ عن ربّه كلامَ ربّ العالمين. وبيّنٌ أنَّه لم يطالبْهُم بذلك التمييز بين نظمه وبيانه، ونظم كلام البشر وبيانهم، إلاَّ وهم قادرون على ذلك التمييز.

هذه واحدة. فلما كابَر المشركون وكذَّبوه عنادًا، تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفترياتٍ [هود: ١٣]، ثم بسورة مثله [يونس: ١٠]، ثم قضى غاية التحدّى فقال لهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم لم ينصِبْ لهم حكمًا يحتكمون إليه = فى الموازنة بين كلامه سبحانه، والكلام الذى يأتون به استجابةً لهذا التحدى = سوى أنفُسِهم، فالأمرُ كُلُّه مفوّضٌ إليهم. وذلك أيضًا دليلٌ على أنَّهم كانوا قادرين على هذا التمييز، وأنهم مؤتمنون على هذا الحكم. وإذن، فالأمر فى الحالين: فى طلب إقرارهم بأن هذا القرآن المنزَّل مباينٌ بنظمه وبيانه لكلام البشر = وفى الحكم المفوّض إليهم فى

التمييز بين القرآن ، وبين ما عسَى أن يعارض به المعارضون استجابةً للتحدّى = كلاهما دالٌّ على أن المخاطبين بالقرآن ، كانوا يملكون قدرًا لا يمكن تحديدُه من القدرة على تذوّق البيان والنظم ، تُتيح لهم الفصْل الواضح بين الذى هو كلامُ البشر ، والذى هو مباينٌ لكلام البشر ، وتمنحهم اليقين القاطعَ بأن هذا القرآن العربىّ المنزَّلَ بلسانهم ، هو كلام ربّ العالمين . وهو دالٌّ أيضًا على أن هذا القدر من التذوّق كان عامًّا فيهم ، يستغرقُ جميع المخاطبين بهذا القرآن ، وأنّه كانَ كائنًا فيهم من قبل أن ينزّل القرآن .

وهذا التذوُّق العام الذى كان فيهم حين نُزِّل القرآن ، يهدينَا كونُهُ إلى أصلين عظيمين لا انفكاك له منهما . أوّلهما : أنه غير ممكنٍ أن يكون نشأ فيهم ابتداءً عند تنزيل القرآنِ ، بل هو نتيجةُ دهورٍ متطاولةٍ من تذوُّق البيانِ فى أوسع نطاقٍ من التنوُّع وأشمله ، وعلى أعلى درجةٍ من دقّة الإِحساس بالأبنية اللغوية المختلفة التى أتيحت للبيان الصادر عن الإِنسان فى جميع لغات البشر . وثانيهما : أنه لا يمكن أن يكون كانَ الأمر على هذا الوجه عند تنزيل القرآن ، إلّا وفى أيدى الناسِ وفى نفوسهم أمثلةٌ حيّةٌ كثيرة متنوعةٌ عتيقة جدًّا متداولةٌ بينَهُم ، وأمثلةٌ أخرى محدثةٌ عتيدةٌ ذائعة بين الناس ، على اختلاف درجاتهم ، لا يكفُّون عن تتبعها وتذوّقها ، وعن المقارنة بين قديمها ومُحْدَثها ، باهتمام وحرص وشغفٍ غالبٍ ، يَصْقلُ التذوُّقَ صَقْلًا حتى تبلُغَ هذه الغاية .

وإذا كان الأمرُ كذلك ، وكانَ مقطوعًا به أنّ أهل الجاهلية كانُوا أمةً أميّة لم تعتمد حياتُها الأدبيةُ ، كما نقول اليوم على كتابة الكتب وعلى التصنيف والتأليف ، بل كان كُلُّ علمهم ، كما قال عمر رضى الله عنه ، فى الشعر = كان مقطوعًا به أيضًا أن الشعر عندهم كان هو أرفعَ الأمثلة الحيّة ، للبيان الذى يتذوّقونه بحرص وشغفٍ ، حتى بلغوا هذا المبلغ الذى دلتنا عليه آية النبوّة ، وهى القرآن العظيم ، إذ تقاضاهم ربُّ العالمين أن يميّزوا بهذا التذوّق المذهل الذى كان فيهم ، بين كلام البشر كُلِّهم ، وبين الكلام المنزّل على نبيِّهم ، فيحكموا بهذا التذوّق وحده بأنه كلامٌ مباين لكلام البشر ، وأنه كلام رب العالمين سبحانه = ثم

جعلهم أيضًا محكّمين فى الفصل بين هذا القرآن المنزّل، وما عسَى أن يأتىَ به من يستجيب للتحدّى محاولًا أن يأتى بمثل هذا القرآن.

ونحنُ لا نستطيعُ، بل لا يجوزُ لأحدٍ عاقلٍ، أن يُسْقِط هذه الحقيقةَ من الدراسة الأدبية، لأن معنى إسقاطها من الدراسة هو عزْلُ حقيقة فى عصر بعينه عن عصرها وعن أصحابها، ثُم دراسة هذا العصر مجرَّدًا من الناسِ الذين كانوا فيه، والذين كانت هذه الحقيقة قائمةً فيه بِهم وفيهم. ولو فعلنا، لكان معنى ذلك أنّنا ندرسُ عصرًا فارغًا من أهله من البشر، وهذا عبثٌ فارغٌ، بل جهلٌ، بل هو جنونٌ مطبقٌ على الأصحّ. وإذا كانَ غير العرب معذورين فى عزل هذه الحقيقة وأشباهها عند دراستهم للشعر العربىّ والتاريخ العربىّ، لأنَّ هذه حالة فريدة وحيدة لا شبيه لها فى تاريخ الجنس البشرىّ كُلِّه، وليس فى إمكانهم تصورُّها إلّا بمفارقة عقائدهم التى أُشربوها منذ الميلاد = فإن المرء العربىّ، أو المرءَ المسلم، لا يُعْذَر فى عزلها، لأنها جزْءٌ لا يتجزَّأ من عقيدته، وأيضًا لأنها جزءٌ لا يتجزَّأ من ميراث تاريخه ولغته، ولأنه لو فَعل، لما بقى فى يديه شىءٌ يدرسُه بعد إسقاط البشر الذين كانت تقومُ بهم حقيقة الأدب وحقيقة التاريخ. وكُلُّ من أسقطَ هذه الحقيقة من المحدَثين فى زماننا، فإنّما أسقطها عن طريق تقليد الدارسِين من غير العرب، فى زمانٍ صار لغير العرب فيه الظُّهورُ والغلبة والسيطرةُ على الحضارة، والتفوق فى الفكر والعلم، بلْ آلت إليهم السيطرةُ على الحياةِ كُلِّها. فمن هذا وحده سقطوا فى التقليد، والتقليد عجزٌ وفسادٌ، ولا يكون التقليد عذرًا لأحدٍ يعقل! ومعذرة لهذا الاستطراد.

ولا ينبغى أن نترُكَ الأمر غُفْلًا، فإن هذا التذوُّق الفاخِر الذى كان عامًّا فى العرب المخاطبين بالقرآن، كانَ أيضًا شاملًا لمن عاشرهُم من طوائف البشر، من مواليهم من غير العرب، ومن غير مواليهم، حتى ظهر من السُّودان وغيرهم شعراءُ مُحكِمون مجيدون، مثل سُحيم عبد بنى الحسحاسِ، وكان حبشيًا مُغَلَّظًا قبيحًا، وكان أعجميًّا ألكن، يقلب الشين سينًا (ما سَعَرْن) والتاء كافًا (أحسنكُ والله)، ومع ذلك كان شاعرًا محسنًا، يقول فيه ابن سلام: «هو

حُلْوُ الشعر ، رقيقُ حواشى الكلام » ، و« أنه عبدٌ من عبيد العرب [١] ، نافذ » . بل زاد الأمرُ على ذلك ، فنحن نعلم أنَّ الفرس الذين جاءوا إلى اليمن وحكموه دهرًا ، اكتسبوا قدرًا وافرًا من هذا التذوُّق ، وهم المعروفون بالأبناءِ ، وقد روى الطبرى حديثًا طريفًا عن أحدِ من حكم اليمن منهم ، (٢ : ١٥٧) ، وذلك أن كسرى هُرْمز ، عزل أحدَ ولاة اليمن واستعمل مكانه « المروزان » ، فأقام باليمن زمانًا حتى وُلدَ له بها وبلغَ ولده ، وكان للمروزان ابنان ، أحدهما تعجبُه العربيّة ويَرْوِى الشعر ، يقالُ له : « خُرّخُسْرَةَ » والآخر أُسوارٌ يتكّلم بالفارسية ويتدهْقَن . فاستخلف « المروزان » ابنه « خُرَّ خُسْرة » ، وكان أحبَّ ولديه إليه . فلما ولى كسرى أبرويز بن هرمز ، بلغه تعرُّب « خُرَّخسرة » ، وروايته للشعر ، وتأدُّبه بأدب العرب ، عزله وولّى مكانه « باذان » ، وهو الذى جاء الإِسلام عليه ، وبعث بإسلامه إلى رسول الله ﷺ . ومعنى هذا : أن هذا التذوُّق كان من العُمْقِ ، ومن القوة والظهور فى الناس ، ومن الذيوع بين عامتهم وخاصتهم ، بمنزلةٍ فريدةٍ غريبة لا نكادُ اليومَ نبلغُ صفتها ، لأنَّا لم نشهدها ، وإن كانت شهادةُ النظر ، ثم شهادة التاريخ بعد الإِسلام ، دالَّة أوضح الدلالة على هذا العمق النافذ ، إذ حمل الموالى فى الإِسلام قسْطًا وافرًا من علم العربية ، ومن علم الشّعر ، ومن الجهبذة فيه ، وبلغوا فى ذلك مبلغًا لم يكن له مثالٌ فى التاريخ من قبل ذلك ولا من بعده ، فى أمة من الأمم سوى العرب ، ولا فى لغةٍ من اللغات سوى العربية ، إلى يومنا هذا . ونحن نعلم ما يقول أصحاب المناهج الساقطة فى هذه الغريبة الفريدة ، ولكن ليس هذا موضعَ بيانه وتفصيله .

فإذا كان هذا التذوّق المصقولُ المُرْهف البالغ أقصى غاية الدقّة والنفاذ فى الإِحساسِ بروعة البيان الإِنسانىّ ، لا يمكن أن يكون قد نشأ ابتداءً حين نُزِّل القرآن = وكان غير ممكن أيضًا أن يبلغ هذا المبلغ إلّا بعد دهورٍ متطاولةٍ من

---

(١) بخط شيخنا « من عبيد الشعر » وأثبتُّه كما جاء فى طبقات فحول الشعراء ص١٨٧ [محمود الطناحى] .

التذوّق النبيل الحُرّ = وكان غير ممكن أيضًا أن ينفُذَ هذا النفاذَ إلّا وفى أيدى الناس وفى نفوسهم وعلى ألسنتهم ، أمثلةٌ وافرةٌ بالغة الوفرة ، متنوِّعةٌ كلّ التنوُّع ، يمارسون عليها تذوّقَهم ممارسة متأنِّية متطاولة ، حتى يصقل هذا الصقل ، وحتى ينتهى إلى أقصى حدٍّ من الرَّهَف واللُّطف ، وهذه الأمثلة الحية الوافرة المتنوعة ، لم تكن إلا من الشعر وحده .

ومعنى هذا أنّ العربَ في العصر الذى نُزّل فيه القرآنُ العظيم ، كان عندهم من الشعر القديم المُعْرِق ، ومن الشعر المحدَث فى زمانهم وقُبيل زمانهم بقليل ، قدرٌ لا يمكنُ تحديده أو حصْرُه من هذا الشعر . وكانَ هذا القدر الوافر البليغ الوفرة ، ذائعًا على الألسنة فى هذه الجزيرة العربية ، من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ، ومن أبعد شرقها إلى أبعد غربها = وأن هذا الشعرَ كانَ ملء أيامهم ولياليهم وساعاتهم ، يتناشدُونه فى كُلِّ منزلٍ ، ويَتَمثَّلونه عند كُلِّ موقف ومَسِير ، ويتذوّقُونَهُ تَذوّقًا بَصِيرًا مُرْهفًا ، ويفضِّلون بعضَه على بعضٍ ، بما اكتسبوا من القدرة على هذا التذوّق الفاصِل بين أَدَقِّ درجات البيان على اختلافها وتنوُّعها .

وأظن أنى فى غِنىً عن ذكر مواسم العرب المشهورة ، حيث يتجمع الناس من كُلِّ بطن وقبيلة ، ويتناشدون هذا الشعر ، فضْلًا عن تجمّع قبائلهم وبُطُونهم المختلفة عند النجعة فى مساقط الغيث فى قلب الجزيرة وأطرافها ، فى كل مصيفٍ ومرْبع . أما الذى هو أجودُ ، فهو أن ننظُر قليلًا ، كيف عبَّر الشعر الجاهليّ الذى شارفَ ظهورَ الإسلام ، عن سيرورة الشعر فى الناس جميعًا على اختلاف منازلهم وطبقاتهم . يقول المسّيب بن عَلَسْ ، وهو جاهليٌّ ، وهو خال الأعشَى ، يثنى على رجُل أدركه الإسلام بعد ذلك فأسلم ، وهو الجواد المعروف « بتيّار الفرات » ، القَعقاع بن معبد بن زُرارة بن عُدُس الدّارميّ ، فأهدى المسيّب إليه ثناءه وهو مقيم بديار قومه بنى ضُبيعة ، والقعقاع مقيمٌ بأرض بعيدة فى ديار قومه بنى تميم ، قال له :

فلأُهْدِيَنَّ مع الرِّياح قصيدةً   منّى مُغَلْغَلَةً إلى القعقاعِ

تَرِدُ المناهِلَ، لا تَزَال غريبةً ... فى القومِ، بين تمثُّل وسَمَاعِ

« فلأهدين مع الرِّياح »، كلمة بارعةٌ، قصيدة تحملها الرِّياح مُسْرعةً مُنتشرةً لا يحتَمِى منها أحدٌ، « مُغلْغلَة »، حثيثةَ الانتقال من بلد إلى بلدٍ، « ترد المناهل »، مناهلَ الماء، حيث ينزلُ المسافرون فى البوادى والقفارِ، بعد أن قَلَّ ماؤهم وبلغَ منهم الجَهْدُ، فتأتيهم هذه القصيدةُ، فتشفى هى أيضًا ظمأهم، فهى بينهم، « لا تزالُ غريبةً فى القوم، بين تمثُّل وسماع »، غَريبة لا تستقرُّ عند راويها. بل يرويها هذا عن هذا، فهم يتناقلونها، كما تتناقل « الغريبة » وهى الرَّحى، رحَى اليد، فإنها لا تستقرُّ عند أربابها، بل يتعاورونها بينَهُم يتداولونها، فهم بين منشدٍ، وهو « المتمثل » وبين سامع قد منحها أُذُنَهُ وقلبه مصْغيًا ليقيّدها ويحفظها، ويتكفَّل بإنشادها حيث كانَ. فهذه صفة سيرورة الشعر، كما قال المسيّب للقعقاع، والمسيّب يقول أيضًا لجيفَر بن الجلندى الأزدى ملك عمان، وقد أدركه الإسلام أيضًا فأسلم، أهدى إليه تحيته على البعد، ولم يرحل إليه ولم ينشده إيَّاها :

وإنّـى امرؤ مُـهْدٍ بغَيْبٍ تحيَّة ... إلى ابن الجُلَنْدَى فارسِ الخيل جَيْفَرِ

بها تُنْفَضُ الأحلاسُ، والديكُ نائمٌ ... إلى مُسْنَفَاتٍ آخِرَ الليل ضُمَّرِ

فهؤلاء سَفْرٌ آخرونَ، بَعُدت عليهم الشُّقَّة، حتَّى كلَّت ركائبهُم، وبلغ منها الضمور وخمصت بطونُها، واضطربت حبال رحالها التى تشدُّ عليها، فوقعوا وقْعة يسيرة ليستريحوا، ثم قاموا من آخر الليل والديكُ نائمٌ لم يؤذنْ بعدُ، وفى أعينهم النوم، وفى أبدانهم فُتُور الجهد، فقاموا ينفضُون الأَحلاسَ وهم يتناشدون هذه القصيدة، لتنفى عنهم السِّنة، وتبعث فيهم النشاط والحركة، تهيجهم على تدبير أمر رحلتهم على هذه النياق الضمَّر التى اضطربت رحالُها، ليَشدُّوا عليها « السناف »، وهو حبلٌ يشدُّ من حقب الناقة إلى تصديرها ثم يشدُّ فى العنق. لتثبت الرحال على هذه النياق الضُمَّر. فالقصيدة هى دواءُ الكلالِ وحافز العملِ، وقد تابع الأعشى خاله، وزاد على

هذه الصفة وفصَّلها تفصيلًا حيث قال :

وإنّ عتاقَ العيسِ سوفَ يزورُكُمْ ثناءٌ على أعجازهِنّ مُعَلّقُ
بهِ تُنْفَضُ الأحلاس فى كُلِّ منزلٍ وتُعْقَد أطرافُ الحِبَالِ وتُطْلَقُ

فأمَّا زهير بن أبى سلمى، فهو يجعل الشعر بضاعةً حاضرةً مع التجار، تجار الخمر، يفضُّونها فى الناس عند كل منزلٍ حيث يقول :

فأبلغْ إن عَرَضْتَ بِه رسُولًا بنى الصَّيداءِ، إن نَفَعَ الجوَارُ
فإنّ الشعر ليس له مَرَدٌّ إذا وردَ المياهَ بِه التِّجارُ

يقول : إذا نزل التجارُ منهلًا وحطُّوا عن رواحلهم، ونصبوا غاياتهم ورفعوها، ليعلم الناسُ أنَّ الخمر حاضرةٌ وافاهُم المشترونَ الراغبونَ من كُلِّ أخياف الناس، لينالوا نصيبهم من الشراب والمنادمة، فينشدونهم هذا الشعر، فتصغى له أسماعهم، ويومئذٍ لا مردَّ لهذا الشعر، فإنه سوف يذهبُ مع هؤلاء الأخياف كلَّ مذهب، ويتناقله كُلُّ لسانٍ.

وأما حميد بن ثور الهلالىّ، وهو جاهلىٌّ أظلَّه الإِسلام فأسلم وصحبَ، فهو يقولُ متهدِّدًا :

أتانِىَ عن كَعْبٍ مقالٌ، ولم يزلْ لكعبٍ يمينٌ من يدىَّ وناصِرُ
لأعترِضَنْ بالسَّهْلِ، ثم لأحْدُوَنْ قَصَائدَ فيها للمعاذير زاجرُ
قصائدَ تَسْتَحِلِى الرُّوَاةُ نَشيدَها ويَلْهُو بها من لاعب الحىّ سامِرُ
يعَضُّ عليها الشيخُ إبهامَ كفِّهِ وتخزَى بها أحياؤكم والمقابِرُ

فهو يذكرُ كيف يتذوّقُها الرواة تلذُّذًا وهم ينشدونها فى الحىّ، فيتلقفها اللاعبُ اللاهى، ويعيد إنشادها فى السامر من تحت الليلِ، وكيف يكونُ موقعها عند الشيخ الكبير الذى لا يملك لها دفعًا إلا عضَّ إبهامه ندمًا على ما كان من غواةِ قومه وصغارهم.

وأما مزرّد أخو الشماخ بن ضرار الغطفانىّ ، وهو جاهلىّ أسلمَ ، فهو يزيدُ على هؤلاء جميعًا فى صفة سيرورة الشعر يومئذٍ ، وكثرة رواته ومنشديه ، وأنّه إذا نزلَ بأرضٍ كثُر منشدُوه حتّى تختلط أصوات المتمثلين . وترنُّ أصداؤهُ فى كلِّ مجلسٍ وفى كل سمع ، ثم يعادُ مرّةً بعد مرةٍ ، فلا يزدادُ إلا وضوحًا وصقلًا واستنارة ، وأنّ الناس يروزونه بأفواههم يتذوّقونه ، حتى تُرَى الشفاه « عوامل » كثيرة الحركة من كثرة الترداد ، يقول :

فقد علموا فى سالفِ الدهرِ أنّنى ... مِعَنٌّ إذا جدَّ الجِراءُ ونابِلُ
زعيمٌ لمن قاذفتُه بأوابدٍ ... يُغَنِّى بها السَّارى، وتُحْدَى الرواحل
مذكرةٍ، تُلقَى كثيرًا رواتُها ... ضواحٍ لها فى كُلِّ أَرْضٍ أزامِلُ
تُكَرُّ، فلا تزدادُ إلا استنارةً ... إذا رازت الشعرَ الشفاهُ العوامل
فمن أرْمِهِ منها ببيْتٍ يَلُحْ به ... كشامة وَجْه ليس للشَّامِ غاسِلُ

فالشعر هو سلوة السارين ليلًا ، وبه يحثُّون رواحلهم كأنها تستمع أيضًا وتتذوّق وتنشط بما تسمع ، وهو ملء كل مكان .

ولا أذكر ما قيل فى تناشد الإِماء العبيد والولائد والعاملين فى كُلِّ عمل عند الاستقاءِ من الآبار ، وعند معالجة الشؤون الأخرى كُلِّها فى الحياة العربية ، وأختم هذا ، بما حدثنا به تميم بن أُبَىٍّ بن مقبل ، عن الشعر كيف يستقبله الناسُ إذا سَمِعوا بيتًا ماردًا بارعًا ، فكأنه جوادٌ سابقٌ بلغ الغاية ، فتمتدُّ إليه الأيدى تمسَحُ وَجْهه إعزازًا له وتكرِمةً ومحبّة وفَرحًا به ، يقول لامرأته :

إذا مِتُّ عن ذكر القوافى، فلنْ ترىْ ... لها تاليًا مِثْلِى أطَبَّ وأشعرَا
وأكثرَ بيتًا ماردًا، ضُرِبتْ له ... حُزُون جبالِ الشِّعر حتى تيسَّرا
أغرَّ غريبًا، يمْسَحُ الناسُ وَجْهَهُ، ... كما تمْسَح الأيدِى الأغرَّ المُشَهَّرَا

أما الجاهلّى الذى فاقَ هؤلاء ، وأوجز كُلَّ هذا وزاد عليه ، فإنه يقولُ :

فإنْ أَهْلِك ، فقد أبقيتُ بَعْدِى ... قوافِىَ تُعْجِب المُتَمثِّلينَا

لذيذاتِ المقاطِع ، مُحْكَمَاتٍ   لَو أنّ الشِّعْر يُلْبَسُ لارْتُدينا

ما أروعه !! وهذه الأبيات القلائل ترفَعُ لأعيننا صورةً حية للشعر فى الجاهلية ، كان الشعر زادَ كُلِّ ركبٍ يقطع البيد من منزلٍ إلى منزل ، يتناشدونهُ تحت رَهْبة الليلِ المتمادى عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ينقلونه معهم من منهلٍ إلى منهل ، أَوْ يردُون به على كُلِّ حَيٍّ حِلاَلٍ . كان الشعر يومئذ سمرَ السامرين واللاهين تحت أشلاء الليل ، يتمثلونه فى أنديتهم مع الفراغ المتطاول فى أيامهم ولياليهم ، يتأمَّلُه المقيم والسارى ويستعيده ويكرِّره ، حتى يزداد استنارةً ولألاءً . كان مع كُلِّ قلب وعلى كُلِّ لسان ، على اختلاف طبقات الناس من ساداتهم وأشرافهم ، وصغارهم وكبارهم ، وإمائهم وعبيدهم . كانوا يستقبلونه استقبالَ الحفاوة والشغف واللذّة والبهاءِ والخيلاء . لا يزالون يتذوّقونه تذوّقًا مستمرًّا بشفاه عوامِل فى المحافل الجامعة ، وفى الوَحْدة المتمطّية بهم مع آناء الليل وأطراف النهار كان تذوُّق الشعر هو عملَ النفس العربية الجاهلية ، لا تأخذها عنه فترةٌ ولا ملل ، بل تهتز وتنشط وتبتهج ، وتجدُّ وتهزلُ ، وتنبسطُ وتنقبض ، وتجد فيه لذّة الحياةِ التى تخالط الأحياء بالليل والنهار ، فهى عليه ، وعلى ما تجدُ لَهُ من الأريحيَّة ، أشدُّ حرصًا من حرصها على كل نفيس وغالٍ . هكذا كانوا ، حتى جاء الإِسلام ، ونَزَل القرآن .

* * *

كان نزول القرآن العظيم حادثة فريدة فى تاريخ البشر ، لم يكن لها شبيهٌ فى تاريخ الأمم ، ولا فى تاريخ الأنبياء صلوات الله عليهم ، ولن يكون لها شبيهٌ . وهى حادثة باقية على الدهر ببقاء القرآن متلوًّا بين الناس ، ولذلك فترك النظر فى شأنها وفى النتائج المترتبة عليها ، وعَزْلُها عن الدراسة الأدبية والتاريخية عزلًا تامًّا ، كما هو واقع بيننا اليوم فى دراسة الأدب والتاريخ = لا يتأتّى أن يكون مفهومًا إلا فى حالتين : فإمّا أن تكون حقيقة رأينا أن ننكر إنكارًا صريحًا قاطعًا أن هذه الحادثة الفريدة ، قد وقعت على هذا الوجه الذى نعرفُه ، وأنْ يكون اعتقادُنا الخفىُّ هو أنّ

كلَّ ما يقالُ عنها باطلٌ لا أصل لَهُ . وإن كان أصحاب الديانة إنّما يذكرونَه لتثبيت العقيدةِ فى القلوب لا غير ، وإذ لم يكنْ لرسول الله ﷺ معجزةٌ أخرى كمعجزات سائر الأنبياء طُولب العرب بالإيمان بنبُوَّته عن حدوثها على يديه ، فمآلُ الأمر فى هذه الحالة هو : أن هذا الكتاب ليس كلامَ الله سبحانه ، بل هو كلامُ مصلِحٍ عبقريّ عظيم كسائر المصلحين ، وإن فاقهم جميعًا = وأن العرب لم يؤمنوا بأنّـه نبيّ رسولٌ إلا على هذا المعنى وحده . وإذنْ فكل ما يقالُ عن إعجاز هذا الكتاب وتحدِّيه للعرب وغير العرب ليس صحيحًا = وأنهم لم يكونوا عاجزين عن الإتيان بمثل نظمه وبيانه فى لسانهم ، بل كانوا قادرين على ذلك ، ولكنهم أعرضوا عن معارضته ، لأنَّـهم سلَّمُوا تسليمًا ما أنّ اتباعَ هذا المصلح العبقريّ العظيم هو أوفق لهم وأنفع ، فرأوا الخير كُلَّه فى اتباعه ، فأعرضوا عن الاستجابة لتحدِّيه طمعًا فى مجد أمَّلُوه ، وذكْرٍ باقٍ عند الناس توقّعوه ، ورجاءَ أن تكون لهُم على أهل الأرض الغلبةُ بسلطان هذا الكلام الذى جاءهم به .

هذه هى الحالة الأولى = وإمّا أن تكون حقيقة أمرنا اليومَ أننا فى حالة مستعصيةٍ من العجْز عن فهم التاريخ ، مع إيماننا بأن هذا كلام الله سبحانه ، وفى جهلٍ فاضحٍ يمتنع معه أن نكون قادرين على تحليل الوثائق التى هى تحت أيدينا تحليلًا بصيرًا ذكيّا مقنعًا ، يعين على وضوح التفاصيل وربط بعضها ببعض ، ويتيح لنا رسم صورة صحيحةٍ للقوم الذين نُزِّلَ عليهم . وآمنوا بأنّ هذا القرآن كلام الله المباينُ لكلام البشر ، ثم ما يتبع ذلك من رسم صورة صحيحة للعصور التى تلى هذا العصر ، عصرِ التابعين وعصر تابعى التابعين ، وهكذا إلى يوم الناس هذا .

وهذه هى الحالة الثانية وكلتا الحالتين أخبثُ من أختها وأخزَى . وأنا أحمد الله الذى أخرجنى من محنة « الشعر الجاهلى » ، منذ أكثر من خمسين سنة ، رافضًا لهاتين الحالتين جميعًا : حالة الكُفْر بأن هذا كلام الله المباين لكلام البشر ، وحالة العجز والجهل والخزى والمهانة . وما دمتُ مقرًّا بأن نزولَ القرآن ،

على الوجه الذى نعلمه ، حادثةٌ فريدة فى تاريخ البشر ، فإن هذا الإقرار يقتضينى أن أجعلها أصل الأصول كُلِّها فى دراسة الأدب وفى دراسة التاريخ ، وإلّا أصبح الأدب العربىّ والتاريخ العربىّ معًا ، خليطًا من المتناقضات لا يمكن فهمه أو دراسته إلا على وجه المكابرة والادعاءِ لا غير .

وإذْ كان الذين آمنوا بهذا الكتاب ، كتاب الله ، هم العربُ الجاهليينَ أصحابَ « الشعر الجاهلىّ » ، فصورة هذا العصر وصور رجالِه ، أساسٌ لا غنًى عنه فى قضية صحة الشعر الجاهلى ، وفى قضية صحة روايته . وإذن ، فينبغى أن نضع القضية كُلَّها وضعًا صحيحًا ، مطابقًا لطبيعة حياة البشر ، بلا انفصالٍ ولا تفكّك ، وقد بينتُ آنفا بعض البيان : أن مطالبة أهل الجاهلية بالإيمان بمحمد ﷺ ، وأنه نبىٌّ مُرْسَلٌ مبلِّغٌ عن ربّه ، تعتمد على أصل واحد لا غير : هو أن يستمعوا إلى هذا القرآن ويستمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتْلُو عليهم ما يُنَزَّلُ إليه منه . وهذا القرآنُ فى نأناة الإِسلام كان قليلًا جدًّا ، لأنّه كان ينزَّلُ عليه منجَّمًا إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ، بأبى هو وأمِّى ، بعد ثلاثٍ وعشرين سنة من يوم بعثته . وإذنْ فهذه المطالبة تقع على قليل القرآن وكثيره وقوعًا واحدًا ، منذ أوّل يوم نُزِّل فيه القرآن .

وسبيلُ هذه المطالبة ، هو أنهم إذا أحسنوا الاستماعَ إلى ما يتلى عليهم منه ، كانوا قادرين على أن يعلموا علمًا يقينًا أنّ هذا الكلام مباينٌ لكلام البشر جميعًا ، وهذه المباينة دالةٌ على أنه كلامُ رب العالمين منزَّلًا على تاليه عليهم بلسان عربىّ مبين ، فمبلِّغه عن ربّه نبىٌّ ورسول أرسله إليهم ليتبعوه . ولولا هذا لم يكن لهذه المطالبة معنًى يُعْقَل . هذه واحدة .

والثانية : أنهم لا يكونون قادرين على هذا التمييز الفاصِل العجيب الذى لم يُمْتَحن البشر بمثله من قبلُ ، إلّا وقد أوتوا قدرًا يفوقُ كل تصوُّر ، من القدرة على تذوُّق أبنية الكلامِ تذوُّقًا نافذًا إلى أعمق أعماق البيان الإنسانى ، ولولا هذا لم يكن لهذه المطالبة الغريبة أيضًا معنًى يُعْقَل .

والثالثة : أن هذا القدرَ من التذوُّق ، غير ممكن أن ينالَـهُ أحدٌ إلا بعدَ قرونٍ متطاولةٍ مُوغِلة فى القدمِ ، كان التذوُّق فيها عملًا دائبًا لجمهور العرب الذين نُزِّل هذا القرآن بلسانهم ، ولولا هذا لم يكن لهذه المطالبة أيضًا معنى يُعْقل .

والرابعة : أنّ هذا غيرُ ممكنٍ أنْ يكون ، إلا وعند المطالبين بهذا الفَصْل الخارقِ ، قَدْرٌ هائل من الكلام الشريف النبيل الجامع لأساليب البيان الإِنسانىّ ، يكون متداولًا بينهم ، يمارسُ عليه جمهور الناس هذا التذوّق ، ولولا هذا لم يكن أيضًا لهذه المطالبة معنى يُعقل .

والخامسة : أن هذا الكلام الشريف النبيل كان أكثره شعرًا عربيًّا جاهليًّا ، متنوِّع المعانى ، متعدّد الأغراض ، يتناول ببيانه كُـلَّ ما تحتاج نفوس البشر إلى الإِبانة عَنْه ، على تعدّد هذه الحاجات .

والسادسة : أن تذوّق ما كانَ فى صدُورهم من الشعر وغير الشعر ، كانَ عمل كبيرهم وصغيرهم ورجالهم ونسائهم ، وأشرافهم وعامتهم ، وأحرارهم ومواليهم ، وأنّ هذا التذوُّق كانَ لَهُ القسط الأوفر فى حياتهم ، فى باديتهم وحاضرتهم ، وفى جِدِّهم ولهوهم ، وأنهم كانوا على مثل تضرُّم النار من الشغف به والإِلحاح عليه ، حتى صُقِلت ذاكرتهم فوَعَتْه ، وأرهِـف به إحساسُـهم فميّزَ بعضه من بعضٍ ، بلا حاجَةٍ إلى علم أو علوم أخرى تعينهم على تعلُّـم هذا التذوّق ، وحتّى صار هذا التذوّق العام كأنَـه سَـجيّةٌ فُـطِروا عليها ابتداءً بلا تثقيفٍ مؤسَّس على الدراسة والتعليم. ولولا هذا لم يكنْ لهذه المطالبة العامّة أيضًا معنى يُعْقَل البتة .

هذه ستُّ باباتٍ تُوجبها المطالبة ، ينبغى لكُـلِّ دارس من أديب ومؤرخ أن يقف عندها طويلًا ، قبل أن يتكلّـم فى شأن « شعر الجاهلية » ، وأن يقدّر خطَرها تقديرًا صحيحًا ، حتى لا يجور به الطريق ، وحتى لا يبتذلَ ألفاظ اللغة التى يعبِّر بها عمّا فى نفسِه ابتذالًا يجلبُ معه من الأوْهام الفاسدة ، أكثرَ مما يجلبُ من الحقائق الأدبية أو التاريخية .

نعم ، فإنّ مطالبةَ عرب الجاهلية ، منذ أوّل يوم فى البعثة ، بأن يُؤْمنوا بأن هذا الرجل ﷺ ، رسولٌ من الله أرسَله إليهم ، يبلِّغهم عن ربِّهم ما شاء الله أن يبلِّغه ، حقيقة تاريخية واقعةٌ لم يشك فيها قبل اليوم ، ولا يشُكُّ فيها اليوم ، إنسانٌ يعقل من ورثة هذه اللغة وهذا الدين ، حتى منْ ضَلَّ وكابر . وكان ينبغى أن لا يخالفهم فيها إنسانٌ يعقلُ ، ممن يخالفهم فى أصل العقيدة وفى اللسان ، لأنّ حقائق التاريخ المتظاهرة من كُلِّ وجه ، لا تدع لهذا الشكّ مجالًا فى النفوس يتحرَّك فيه أو يتدسَّس . بيد أنَّ أكثرهم يعلم ذلك علمَ يقين فى دخيلة نفسه ، ولكنه يتغاضى عنه ويكتمه ، بسبب العقيدة التى ينتمى إليها ، وهى بطبيعتها مبنية أصلًا على العصبية ، لا الإنصاف ، ولذلك فهو يجعل منهجَ دراسته الأدبية والتاريخية فى شأن العرب والمسلمين ، قائمًا أبدًا على إغفال هذه الحقيقة الواقعة وعزلها عن دراسته ، فإن اسْتَحْيَى أحدهُم ، أو حاوَل أن يُظهر الحياءَ ، وخادع بإظهار الحرصِ على النَّصَفة والجدِّ فى الدراسة ، فإنّه يبدأ مشيرًا إليها عَرَضًا ، إبراءً للذمة ثم يُغْفِلها بعد ذلك ، ويُغْفِل أيضًا كُلَّ ما يتطلَّبه حدوثها من النتائج المترتبة عليها ، وهؤلاء هم المستشرقون من أهل الكتابين ...

ولكن ما أشبه الليلة بالبارحة . فإن الله تعالى قد نبَّأنا من أخبار أسلافهم ، وما كان منهم فى شأنِ القبلة ، وتحويلها من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، فقال سبحانه : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢] ، ويعنى بالسفهاء أهل الكتابين ومن تابعهم من المنافقين ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، أى يعلمون علمًا يقينًا أنّ البيت الحرام هو قبلة أبوينا إبرهيم وإسمعيل ، وأن أنبياءَهُمْ - وهم من ولد إبرهيم وإسحق - قد استقبلوها وطافوا بها ، لأنها مناسك ملّة إبرهيم ، ثم كشف الله حقيقة أمرهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وكذلك هُمُ اليوم ، لم يختلف الخُلُق ولم يتغيَّر ، فى

كتمان الحقائق التاريخية وإغفالها بكُلِّ سبيل . وليس هذا إذَن بعجيب . ولكن العجبُ لمن يُخدعُ منَّا ، فيتكلم بمثل ما يتكلمون به ، ويجرى على مثل مناهجهم فى عزل أوثق حقيقة تاريخية فى دراسته الأدبية أو التاريخية . عجبٌ ، ولكنَّه فضْلًا عن ذلك خزىٌ أيضًا !

وهذه المطالبة ، أعنى مطالبةَ عرب الجاهلية بأن يؤمنوا بأن هذا الرجل ، ﷺ ، رسولٌ من عند الله ، مؤسسة على مطالبة أخرى ، أشرت إليها فى كلمتى السابقة ، فى خلال تفصيل البابات الستّ آنفًا ، وهى أن يستمعوا إلى هذا الذى يتلوهُ عليهم ، وأن يتبينوا بعد استماعه أنه ، وإن كانَ منزَّلا بلسانهم ، فهو مع ذلك مباينٌ لَهُ ، ولكلام سائر البشر ، مباينةً تقطعُ بأنه كلامُ ربّ العالمين . وكلتا المطالبتين حقيقة تاريخية واقعةٌ ، وهما ملتحمتان التحامًا داخلًا ، لا يمكنُ معه أن تنفَكَّ إحداهُما من الأخرى ، فجميع النتائج المترتبة على حدوثهما ملتحمة أيضًا التحامًا داخلًا لانفِكاك له أو منه . وإذا كان ذلك كذلك ، فأىُّ إخلالٍ ، أو إسقاطٍ ، أو غَفلةٍ ، أو نسيانٍ ، أو تجاوزٍ ، أو انحرافٍ ، أو تهاوُنٍ ، أو تغاضٍ ، أو توهُّم منفعةٍ فى ارتكاب شيء من ذلك ، فى سبيل إقناع من لا يؤمن بهذا الدين ولا برسوله = كُلُّ ذلك مفضٍ إلى فسادٍ كبير فى جميع الدراسات الأدبية والتاريخية ، لأنه ينتزع أكبر حقيقة تاريخية لا شك فيها من مكانها ، وقد ترتبت عليها نتائج تاريخية وأدبية لا تنفَكُّ منها ، فى كل لَبِنة من لَبِنات ما نسميه اليوم : « الحضارة العربية » أو « الحضارة الإسلامية » . لا ، بل يحزُنُنى أن أقول إنه ليسَ انتزاعًا وحسبُ ، بل هو إلغاءٌ ماحٍ لهذه الحقيقة التاريخيّة الواقعة ، ويحزننى أيضًا أن أقول إنه قد أدَّى إلى تشويهٍ كامِلٍ ، شوَّه ثقافتنا الماضية كُلَّها ، وشوَّه علومنا كُلَّها ، وشوَّه تاريخ أسلافِنا ، وتاريخ رجالنا ، وتاريخ أدبنا ، وتاريخ حضارتنا . وكل ذلك مَبْثُوثٌ حاضر فى الكتب المؤلفة فى زماننا ، وفى المذاهب المحدَثة ، وفى الأفكار الجديدة ، وكاد ينتهى الأمرُ بالرفض الكامِل لكلِّ هذا الماضِى ، ولو بقى الأمرُ طويلًا على ما نحنُ عليه ، فسينتهى إلى الرفض الكامل بتّةً ، شئنا أو أبينا . وهذا البابُ من المخاوف يقتضى أن تؤلَّفَ فى بيانه

كتب ، لا أن تلقى فى شأنه كلمة موجزة فى ساعةٍ سانحة ، مقتطعة من هذا الفراغ السَّـهل المُمْتِع اللذيذ الذى نعيش نحن فيه اليوم ! اللهُـمَّ ادفع عنَّا ما نخاف بما شئت ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

هذا الذى بيَّنْتُه ، أصلٌ من الأصول التى بنيتُ عليها منهجى فى الدراسة ، بل هو الأصل كُلُّه ، وما بعده فرع عنه . ومن هذا الأصل ، سأحاول على عجلٍ أن أفرُغ من بعض قضايا « الشعر الجاهلى » ، ومن قضية روايته ، ومن رسالة محمد بن سلام الجمحى ، فى صدر كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، ومن بيان بعض ما تضمنته من المعانى المتعلقة بهذا الشعر .

قلتُ : إن نزول القرآن العظيم كانَ حادثةً فريدةً فى تاريخ البشر ، منذ كان أبوهم آدمُ عليه السلام ، إلى يوم الناس هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولكن لابُدَّ من تصور هذا الأمر تصوُّرًا صحيحًا ، قبل أن ننتهى إلى ما نريد .

كانَ نهجُ الأنبياء من قبل نزول القرآن ، أن يأتى النبى ومعه شيئان : آيةٌ وبلاغٌ ، آية معاينةٌ يشهدونها بأعيُنـهم فينخلعون لها من قواهم انخلاعًا يوجب التسليم له بأنه نبىٌّ مرسَـلٌ ، كآيات موسى وعيسى عليهما السلام = وبلاغ ملفوظ يحدِّثهم به بلسانهم ، عن وَحْيٍ يوحيه الله إليه ، وتجب طاعته فيما يحدثهم به عن ربّـه . فلما شاءَ ربُّنا أن يختم النبوة فى الأرضِ برسولٍ من العرب يرسله إليهم وإلى الناس كافةً، اختلف النهجُ اختلافًا بيِّنًا. فاصطفى لمشيئته عبدَه محمدًا ﷺ من العرب وحدهم ، دون سواهم من البشر الذين أظلَّـهم زمانُ بعثته ، وأبى الله أن تكون له آيةٌ معاينةٌ يشهدونها بأعينهم ، فينخلعون لها من قواهم انخلاعًا يوجب عليهم التسليم له بأنه نبىٌّ مرسلٌ ، كما أوتى النبيون من قبله . فأرسله الله ومعه بلاغانِ ملفوظان :

البلاغ الأوَّل : بلاغ ملفوظ وهو : قرآنٌ ينزَّل عليه من فوق سبع سموات . منجَّمًا بلسان عربِّى مبينٍ ، أمره أن يقرأه على الناس على مُكْثٍ ، وأن يبيِّن لهم أنه كلام الله أنزله بلسانهم ، لا كلامُـه هو .

البلاغُ الثاني : بلاغٌ ملفوظٌ أيضًا ، كالذى أوتيه النَّبيُّون من قبله ، يحدثهم به بلسانهم عن وحى يوحيه الله إليهم ، وتجب عليهم طاعته فيما يحدّثهم به عن ربِّه . وهذا الذى قلته هو معنى قوله ﷺ ، بيَّنه بيانًا واضحًا فى قوله : « ما من نبىّ إلّا وأُوتى من الآيات ما مثْلُهُ آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيتُه وحيًا أُوحى إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة » ، وقوله : « أوتيت الكتاب ومِثْلَه معه » .

ومن أوّل يوم فى بعثته ، ﷺ ، لم يكن معه إلّا ما أُوتِى من البلاغين الملفوظين ، وإلّا أن يفجأ الناسَ الذين لبث فيهم عُمُرًا من قبل ذلك أربعين سنة ، فيقول : « إنى رسول الله إليكم » فإذا سألوه آية دالةً على نبوته . لم يكن معه أيضًا إلَّا آيات معدودات قلائل ، هى أوّل ما نُزِّل عليه ، يتلوها عليهم ويقول : « هذا برهانُ نبوتى ، كلامُ الله » . أىُّ برهانٍ هذا ؟ وأى فرقٍ يستطيع الناس أن يجدُوه بين دعواه : « إنى رسول الله » ، ودعواه فى القليل الذى يتلو : « هذا كلامُ الله » ؟ وأنّى لهم الفَصْلُ فى هذه الدعوى ؟ وألحّ عليهم أن يفارقوا دين آبائهم الذى يتوهَّمُونه كان من دين أبويهم إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام ، وألحُّوا عليه يسألونه آية كآيات الرُّسُل من قبله ، حتى يعلموا أنه رسولٌ من عند الله . وزادت حيرتُهم على الأيام ، ولكن الأمرَ ظل على هيئته يومًا بعد يومٍ ، وشهرًا بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، وقريشٌ والعربُ الذين تسامعوا به أو سمعوا ما يتلو ، لا يدرون ماذا يقولون ولا ماذا يفعلون . سمعُوا كلامًا يتْلَى ، فرازُوه واختبروه وتذوَّقُوه ، وزادت حيرتُهم فى أمر هذا الرجل ، ولكنه لم يزدْ على أن طالبَهُم بأن يتبينوا بأنفسهم أنّ هذا الكلام العربىّ المتلوّ عليهم ، ليس من كلامه هو ، وإنما هو كلامُ الله المباين لكلام البشر ، فإذا تبيَّنوا ذلك علموا أنه رسولُ ربّ العالمين . ولكنَّهم على الأيامِ أحسُّوا فرقًا غامضًا بين ما يقوله هو بلسانه ، وبين ما يتلوهُ عليهم ، ولكن الذى طولبوا به أجلُّ من ذلك : أن يتبيّنوا أنه كلامُ الله سبحانه . فعجزُوا ، أو عجز جُلهم ، أن يجد فى نفسه بيان ما يطالِبُ به ، وغلبهُم إلف ما دانوا به ، فلم يجدوا له صفةً ؟ إلا أن يقولوا : « شاعر » قَدْ أوتى لسانًا مبينًا ، أو « كاهنٌ » له سَجْعٌ نافذٌ إلى القُلوب

التى تَرِقُّ وتستجيبُ لحديث الغيب ، أو « ساحر » ، له لفظ آسِرٌ يفرّق بين المرء وزوجه ، « أو معلَّمٌ مجنونٌ » ، تتنزَّل الشياطين على لسانه بما يخرجُ عَنْ قُوَى الشعراء والكهَّان والسحرة .

ولكنّ الأمرَ خَرَج عن الطوقِ ، وتتابع التنزيل ، وكثرَ ما يُتْلَى ، والمطالبة تزدادُ مع الأيام حدّة وتقريعًا . والحيرة تزدادُ مع الأيام جدًّا وصرامة ، وعلموا فى دخيلة أنفسهم أن الأمر جدٌّ كُلُّه ، وأنه صادق فيما يتلو : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق : ١٤] . وعَلِموا أن هذه المطالبة لن تنقطِع ، وأنّ قليلَ من آمنوا معه يومئذٍ ، قد اخترقُوابقوَّةٍ هذا الحاجزَ الكثيف المتراكب المُظْلم ، واستجابوا عَنْ بصيرة إلى هذه المطالبة ، واستطاعوا أنّ يفرِّقوا بين « كلام الله » وكلام البشر تفريقًا لم يدعْ فى أنْفُسِهم مكانًا للشكِّ . وما هو إلا التسليم بأنَّ هذا التاليه عليهم رسولٌ من رب العالمين . واحتدم الأمرُ .

هذه صورة سريعة مقتضبة ناقصةٌ فاترةٌ ، ولكنّى الآن لا أملك غيرَها ، وأنَّى لِى أن أصف محنة هؤلاء العرب بنزول القرآن ، وما وجدُوا من التمزُّق الهائل ، والتصدع البائن الذى يفتّت القلوب والنفوس والعقائد ، وهم يجدون مسَّ القشعرِيرة فى ما يتلى عليهم ، ثم تنهارُ القشعريرةُ تحتْ وطأة الإلف المتثاقِل عليها بدين الآباءِ والأجدادِ على الدهور المتطاولةِ ، وعلى الغفلة المُحِيطةِ بالعُقول والنفوس زمانًا بعد زمانٍ ؟ محنةٌ قاسيةٌ ممزِّقة ، لا نكاد اليوم ندرك منها إلّا الطرف اليسير ، ولكنى أفزع فزعًا شديدًا حين أتخيَّلُ نفسى مغموسًا فيها أطلب المخرَج ! لا طاقة لى بصفة هذه المحنة ، ولذلك أقطع هذا ملتفتًا إلى الإجابة عن أسئلةٍ كثيرة ، ولكنى سأقتصر على أكثرهنّ تعلُّقًا بالشعر الجاهلى ، وبروايته كيف انتهت إلى العلماء الرواة الذين أدّوا إلينا هذا الشعر ، لأنّ الأمر مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بهذه المحنة . والسؤال الأول هو : لم كانت هذه المطالبة ؟ والسؤال الثانى هو : لمن كانت هذه المطالبة ؟ والسؤال الثالث هو : ماذا كان أثر هذه المطالبة فيمن طولبوا بها ؟ وعسَى أن تكون الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة بإيجاز كاشفةً لبعض الغيوم التى تحيط بالشعر الجاهلىّ ، ومكانه عند عرب الجاهلية . ومكانه فى الإِسلام . وقد سلفت الإِجابة ضمنًا فى

كلمتى السالفة عن بعض ما تَتَطَلَّبُه هذه الأسئلة ، ولكنى أتممها هنا ليكون الكلام سياقًا واحدًا .

وجواب السؤال الأول : لم كانت هذه المطالبة ؟ مقصورٌ كُلُّه على سابق علمه سبحانه ، ومردودٌ كُلُّه إلى مشيئته ، ولكن لما كان القرآن المنزَّل لسانًا عربيًا ، وكان كلامهم هم لسانًا عربيًا أيضًا ، وكان القرآن آية باقية على الدهر ، وكانت المطالبة منصبة على أن يفرقوا بين الكلامين العربيين تفريقًا قاطعا فاصلًا بأنه مباينٌ كُلَّ المباينة لا لما يُطيقُه لسَانهم العربى وحسبُ ، بل لما تطيقُه ألسنة سائر البشر أيضًا ، وجب النظر فى أمرين : أمر اللسان العربى ، وأمر أصحابه عرب الجاهلية .

أما اللسان العربىّ ، فبدلالة العقل ينبغى أن يكونَ قد بلغ يومئذ غايةً تفوق ما بلغته غايات الألسنة كُلِّها ، وما سوف تبلُغُه ألسنة البشر إلى آخر زمانهم = فى إحكام ألفاظه ، وفى تناسُق جَرْسه ، وفى دِقَّة تركيبه ، وفى انفساح تفصيله ، وفى عمق دلالاته ، وفى مرونة تصريفه على وجوه البيان ، حتَّى يمكن أن يحتمل ضربًا من الكلام يدلُّ تذوّقُه على أنه مباين كُلَّ المباينة لكلام البشر ، ويكون آيةً دالَّةً على أن التاليه عليهم وعلى الناسِ كافة نبىٌ مرسلٌ ليكون خاتم أنبياء البشر .

وأما أصحاب اللسان العربىّ ، فمحالٌ أن يفجأ الله عباده من عرب الجاهلية بهذا التبينّ الذى طالبهم به ، وهم خِلْوٌ من القدرة عليه ، فكان لزامًا أن تكون لهم قُدرةٌ يعلمها سبحانه فيهم ، وإن جهلوها هُمْ من أنفُسِهم من قبل أن يطالبوا بهذا التبينّ ، وإلّا يكن ذلك كذلك ، كانت المطالبة تعجيزًا محضًا لعباده ، يسقط منهم التكليف الذى تقتضيه هذه المطالبة . وتعالى الله عن أن يكلف عبادهُ أمرًا يعلمُ هو سبحانه أنه خارجٌ عن قدرتهم خروجًا لا إرادة لهم فيه . وبديهة العقل تقضى بأنه محالٌ أن تكون هذه القدرة جبلّةً فُطر العربُ عليها بلا إرادة منهم ولا عمل ، وإذنْ ، فهى قدرة مكتسبة بإرادة وعمل .

وبالجمع بين هذين النظرين ، يتبيّنُ تبينا جليًا أن أصحاب اللسان العربىّ يومئذ ، كان عندهُم قبل المطالبة ، أمثلةٌ حيةٌ مستفيضةٌ بينهم ، من كلامٍ قد

مارسوه هم وآباؤهم ممارسة متوارثة بعيدة الأجل ، حتى اكتسبوا قدرةً كامنةً فى أنفسهم ، تجعله عدلًا من الله لا ظلم فيه ، أن يطالبهم بتبيّن الفرق بين ما عندهم وما تطيقه ألسنتهم هُم ، وبين هذا القرآن الذى أَطاقه لسانُهُم العربىّ ، وتنخلع قواهم أن تطيق ألسنتهم هُمْ أن تأتى بمثله ، انخلاعًا يوجب التسليم بأنه مباينٌ لكلام البشر ، وأن تاليه عليهم نبى مرسلٌ . وهذا الكلام هو ما ألفوه دهورًا إلى زمانهم من بارع كلام فصَحائهم الأبيناء ، وأعلاه عندهم وأشرفه وأبقاه فى صدورهم وعلى ألسنتهم هو شعر شعرائهم الذين كانوا فى الجاهلية ، منذ دهور متطاولة إلى يومَ طولبوا هذه المطالبة الفاصلة . وهذا هو ما نسميه « الشعر الجاهلى » ، فمن أجله ومن أجل قدرتهم على تذوّقِه تذوّقًا عميقًا ، طولبوا بما طولبوا به ، هذا مختصر إجابة السؤال الأول .

أما جواب السؤال الثانى : لمن كانت هذه المطالبة ؟ فإنها كانت عامةً لا تخصُّ نفرًا من العرب دون نفر ، ولا قبيلة دون قبيلة ، ولا تفرق بين ذكر وأنثى ، ولا بين صغير وكبير ، ولا بين قرشى وغير قرشى ، ولا بين عدنانى وقحطانى ، ولا بين يمانٍ وحجازى ، ولا بين حُرٍّ وعبد ، ولا بين عربى صليبة وعربى قد اكتسب العربية بالمعاشرة ، ولا بين بادية وحاضرة ، ولا بين أعرابيٍّ من أهل الوبر وعربّى من أهل المدر ، فكلهم عربِّى ، ولسانه عربيٌّ ، والمطالبة عامة لجميعهم بلا فرق أو تمييز ، وهذه بلا ريبٍ حقيقة واقعة أيضًا . لا ينقضُها شيءٌ ممّا كان على عهده ﷺ . وهذا أيضا مختصر إجابة السؤال الثانى .

أما جواب السؤال الثالث : ماذا كانَ أثر هذه المطالبة فيمن طولبوا بها ؟ فإنى حاولت آنفًا محاولة خاطفة أن أصفَ ما أصابهم من الفزع والحيرة ، وما وجدوا في بناءِ أنفُسهم من التصدّع والتمزّق ، وهُمْ يجدون مسَّ القشعريرة والرهبة مما يتْلى عليهم من كلام الله ، وذكرت أيضًا من قبل أن هذه المطالبة المفاجئة المذهلة ، قد أرهفت قُدرتهم على التذوُّقِ ، على تذوُّق ما يسمعونه من نبيل القول وشريفه ، لينفُذَ كلُّ امرئٍ منهم بإحساسِه المتوقِّد إلى تبينُّ هذا الفرق الهائل الذي طولب بتبيُّنه ، والذي يجِدُ مَسَّهُ في أعمق أعماق نَفسه ، مع تضارُبِ الأمواجِ المتلاطمة

فيها من مخاوفِ مفارقة ما أَلِفوهُ زمانًا طويلًا من عقائدهم وعقائد آبائهم ، وكانَ مِمَّا يثيرُ هؤلاء المطالبين أيضًا أن يشهدوا عيانًا ، يومًا بعد يوم ، تفَلُّتَ رَجُل كان بالأمسِ منهم ، لا ينكرون عقله ولا منزلته ، قد تبيَّنَ هذا الفرق الفاصل القاطع ، فيخرُجُ فجأة نافرًا إلى الإيمان بأنّ تالى هذا القرآنِ نبيّ من رب العالمين مرسلٌ ، وأن هذا القرآن كلام الله سبحانه المباين لكلام البشر . واحتدمَ في كُلِّ نَفْسٍ جُهدٌ طاغٍ يومًا بعد يوم ، وشهرًا بعد شهرٍ ، وسنة بعد سنة . يبذلُه كُلّ امرىء في ذات نفسه بجدّ لا يفتر ، وبشغَفٍ لا يَهْمَدُ ، مُسْتعرضًا متذوّقًا ما يجدهُ عند نفسه ، وما يتلقفه من عند غيره ، من نبيل القول وشريفه ، ولا سِيَّما هذه الوفرة الوافرة من شعر شعرائهم الذين كانوا في الجاهلية . كان هذا شأن المعاند الشديد العداوةِ لِمَا يسمعُه من قولٍ يزلزلُ عقائد الآباء والأجداد ، وشأن المقارب الذي يُقْبل ويدبر ، ويقدّم رجلًا ويؤخّر أخرى ، وشأن المستبصر الذي يضيء له البرقُ طريقه ساعة ثُمَّ تلفُّه غياهب الظلمة ساعةٍ ، ولكنه مُصرٌّ على أن يُبْصِر ويستبينَ . وإذنْ فلم يكن نزولُ القرآن العظيم داعيًا إلى هجر شعر الجاهلية ، بل كان حافزًا مثبّتًا لهذا الشعر في النفوس بتكرار التذوُّق والتأمُّلِ ، وبالمقايسةِ بين بعضه وبعض ، وبينه وبين ما طولبوا بأن يتبيَّنوا أنه «كلام الله» المفارق لكلامهم ولكلام البشر . وكان هذا القرآن العظيم مستجيشا أيضًا في كُلِّ نفس رغبةً في الاستكثار من شعر جاهليتهم ، وكان فوقَ ذلك صاقلًا بروعته ورهبته لأقصى قدرةٍ على تذوُّق الكلام تذوُّقًا حُرًّا نافذًا مرهفًا يستطيع ، أو يحاولُ ، أن يخترقَ الحاجز الكثيف الفاصل بين أرْوع ما تطيقه ألسنة البشر ، وبين هذا القرآن العظيم الذي يباينُ كلامَ البشر ، وإن كان منزَّلًا بلسان ألسنة هذا البشر ، وهو اللسان العربيّ المبين .

وههنا أمرٌ لابُد من محاولة توضيحه وبيانه بإيجاز ، فإنى قد أكثرت من ذكر «التذوُّق» قديمًا وفي هذه الكلمات ، دون أن ألقى بالًا إلى وجوب بيانه قبل الإفراط في ذكره . وهذا التذوُّق ليس عَمَلًا هينًا ميسورًا ممهَّد السُّبل ، ولا عَمَلًا موقوتًا بساعته حتى إذا فُرِغَ منه ذهبت حاجة النفس إليه ، بل هو عملٌ خفيٌ متشعِّبٌ معقَّدٌ يخالط العقل والنَّفْسَ ويثيرها ويهزُّها ويُقَلِّبُها بتقلُّب

الخواطرِ تقليبًا لا تكاد تبلغُه الصفة ، ثم هو عملٌ غائرٌ فى النفس المتذوِّقة ، قائم فيها أبدا بسلطان قاهر ، يزيدها على الأيام وعلى الممارسة حرصا عليه وشغفا به ، ثم لا ينفك عنها ولا تنفَكُّ عنه ، لأنّ الإنسان ، كما قلت قديمًا في بعض ما كتبتُ ، هو في إرْث طبيعته فنانٌ مُعْرِق ، فإذا نشب «التذوُّق» في سرِّ نفسه لم يُفْلته، وإن حاولَ التفلُّتَ منْ إسارهِ ، وأيضًا فإن هذا التذوُّق الذي تمارسُه النفسُ المتذوّقة للبيانِ ، ليسَ عملًا يتعلَّق بظاهر الألفاظ والتراكيب والصُّور ، هذا وهمٌ غالبٌ على كثير من الناس ، وشرُّه ما تجدهُ في زماننا هذا ، حتى انتهى إلى نزاعِ غثّ بيّن الغثاثة في أدبنا الحاضر . بل التذوّق عملٌ مُركبٌ متراحبٌ متعانق شديد التعقيد ، يبدأ من عند ظاهر الألفاظ والتراكيب والصُّور ، لينفُذَ منها إلى أعمق أعماق المعانى التي تنطوي عليها ، وإلى أدقِّ دلالاتها على تنوُّعها وانتشارها ، وإلى أغمضِ ما يكمن في ثناياهَا من الفكر والرأى والنظر والحجة ، وإلى أخفى الأمواج المتدسِّسة التي تُصادِم النفس المتذوِّقَة برفْق ثم بعُنْفٍ بَيِيسٍ مُدَمْدِم ، يفجِّر فيها مغاليق الكنز الدفين الذي استودعه الله في الإنسان منذ خَلقَه على جبِلَّته وبمشيئته سبحانه ، وهذا الكنز هو «البـيان» يقول الله سبحانه : ﴿ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

[الرحمن : ١ : ٤] .

فظاهرٌ إذن أن هؤلاء العربَ المطالبين بأن يتبينوا مفارقة القرآن العظيم لكلام البشر ، وأنه كلام الله سبحانه لا كلامُ التاليه عليهم ، وأنه عندئذٍ هو آيتهُ الدالة على أنَّ تاليه عليهم نبى «مرسل» من ربّ العالمين ، يجب عليهم التسليم له بنبوَّته = لم يكن تذوّقُهم لما يُتْلَى عليهم تذوقًا لظاهر لفظه وتراكيبه وصوره وحسبُ ، بل كان تذوقهم نافذًا أيضًا يغوصُ إلى أعمق الأعماق التي تدلُّ عليها الألفاظ والتراكيب والصور ، ويَتشعَّبُ تذوقهم مع أدق دلالالتها ومعانيها وينفذون بهذا التذوُّق المرهف إلى أغمض ما يكمن فيها من الفكر والنظر والحجة ، وتُصادِمُ الألفاظ والتراكيب والصُّور والمعانى والدلالات نُفُوسَهم مصادمة تفجّر أغمضَ إرثٍ كامن في الإنسان ، وهو البيان . ولذلك فإن من

آمن بنبوته ﷺ بعد أن تهدّم الجدار الحاجز الكثيف الفاصلُ بين أروع ما فى الشعر الجاهلى وبين هذا القرآن المنصوب لهم آية على نبوته ﷺ لم يجتَزْ هذه العقبة الكؤودَ إلّا ومعه علمٌ كثير بما نُزِّل من القرآن يومئذٍ، علمٌ بمعانيه، وعلم بحُججه التي يُحَاجُّ بها من كفر، وعلمٌ بما يدلُّهم عليه من آياته في الأرض والسماء، وعلمٌ بما يؤدِّبهم به من الأخلاقِ والأعمالِ، وهذا هو فرق ما بين آية نبوة محمد ﷺ الدالة على نبوّته، وبين آيات من سبقه من الأنبياء الدالّة على نبوتهم. فآيته ﷺ آية ملفوظة باقية آثارها في نَفْسِ كل من آمن به، وآيات الأنبياء من قبله معاينة مشهودة، توجب الإيمان بنبوّتهم، ولكنها تنقضي بانقضاء حدوثها.

ولذلك، فإن الأمة مجمعة، إلّا من شذّ، بأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ عند كلٍّ منهم من العلم بالقرآن وبسنته صلّى الله عليه وسلَّم، وهى ما أوتيه من الوَحْى كما أوتى النبيُّون من قبله، قدْرٌ لا يلحقه فيه أحدٌ من التابعين، سواءٌ كان الصحابيُّ قديم الصحبة له ﷺ منذ أول البعثة، أو كان حديث الصُّحبة لم يدركه إلَّا في آخر أيامه، بأبى هو وأمِّى، قبلَ أن يقبضَهُ الله إليه ويُرْفَع الوَحى. وذلك لأنّ كُلَّ صحابيّ لم يَخرجْ من جاهليته إلى إسلامه، إلّا بعد أن استوعبَ بهذا التذوق النافذ العميق، قدْرًا هائلًا من علم الكتَاب المنزَّل، حين تهدَّم الحاجز الكثيف، فانكشفَ لَهُ أن هذا الكتاب «كلام الله» المباين لكلام البشر، والجُهْد الذي بذله كلُّ صحابيّ في هذا التذوّق الذي وصفتُ، جهدٌ لا يُستطاع تحديده أو تصوُّره، والذي عاناه كُلُّ منهم في سبيل هذا التبيّن الفاصل بين القرآن وبين كلام البشر، محنةٌ شديدةٌ على النفس الإنسانية لا يبلغُ النظرُ النفاذَ إلى حقيقتها، ولذلك رفعهم الله درجات فوق سائر عباده، وقال لهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران] ولذلك أيضًا قال رسول الله ﷺ: «دعوا لى أصحابى، لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهبًا لم يبلُغْ مُدَّ أحدهم أو نصيفه» ولذلك أيضًا شدَّدَ علماء الأمة النكير على من سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ،

أو غمَسَ لسانه أو قلَمُه بسوء الأدبِ وقلة الحياء من الله ، في شيء مما وقع بينهم من خلافٍ أو نزاعٍ أو قتال .

وأحبُّ أن أختم هذا الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ وما عانوا ، بخبر رواه الإمامُ أبو عبد الله البخارى في الأدب المفرد ، « قال : حدثنا بشر بن محمد قال ، أخبرنا صفوان بن عمرو قال ، حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نُفَيْرْ ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا ، فمَرّ به رجُلٌ فقال : طُوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! و اللهِ لَوَدِدْنَا أنَّا رأينا من رأيتَ ، وشهدنا ما شهدتَ ! فاستُغْضب (المقداد) . فجعلت أعجب ، ما قال إلّا خيرًا ! ثم أقبل (المقداد) عليه فقال : ما يحملُ الرجُلَ على أن يتمنّى مَحضرًا غيَّبَهُ الله عَنْهُ ؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ؟ والله لقَدْ حَضَر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبَّهُم الله على مناخِرهم في جَهَنَّم ، لم يجيبوه ولم يصدِّقوه ! أو لاتحمدونَ الله عز وجَلَّ إذ أخرجَكُمْ لا تعرفون إلّا ربّكُمْ ، فتصدِّقُون بما جاء به نبيكم ، قد كُفيتُمُ البلاء بغيركُم (يعني الصحابة) والله لقد بُعث النبيّ ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعِث عليها نبيٌّ قط ، في فترة وجاهلية ما يرونَ أن دينًا أفضلُ من عبادة الأوثانِ ، فجاء بفرقانٍ فَرَّق به بين الحقِّ والباطل ، وفرَّقَ به بين الوالد وَوَلدِه ، حتى إن كان الرجُلُ ليَرَى والدهُ أو وَلَدَهُ أو أخاه كافرًا = وقد فتح الله قُفْلَ قلبه بالإيمان = ويعلم أنه إن هلك دخل النارَ ، فلا تقرُّ عينُه وهو يعلم أنّ حبيبهُ في النار = وإنها للتى قال الله عزّ وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ » [سورة الفرقان] .

وهذا خبر يُدمِي القلوبَ ويبكي الأعيُنَ ويُلقى الرُّعْبَ في النفوس ، وهو عظيم الدلالة على مقدار التصدُّع والتمزق الذي لقيه العربُ الذينَ كانوا في الجاهلية ، ثم اجتازوا الهولَ كُلَّه إلى الإسلام وصحبوا تالى القرآنِ عليهم ﷺ ، ولكنْ يا سوءَ ما صرنا إليه : أن يجترىء مجترىء غيَّبَه الله عن محضر لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه ، فيهجم على صحابة رسول الله ﷺ ، ويغمس لسانه وقلمه فيما وقع بينهم من خلافٍ ، ويقضي في أمر إسلامهم للَّه قضاءً يوجب له

أن يقول : إن فلانًا وفلانًا وفلانًا من الصحابة لم يدخل الإِيمانُ قلوبهم قطُّ !
اللهمَّ اغفر لنا وتَغَمَّدنا برحمتك وقنا عذاب النار .

هذا أيضًا مختصر جواب السؤال الثالث ، مع استطرادٍ لا يلتحمُ به ، ولكنْه لا ينفصل عنه .

* * *

أظنُّ أنى قد استطعت أن أبين عن نفسى بعض الإِبانة في أشياء مختلفة تتعلَّق بالشعر الجاهلّى . ولكن بقيت منه مسألة يحسن أن أُدَلِّلَ عليها من نفس الطريق الذى سلكتهُ ، فقد صارَ بيِّنا فيما أظنُّ أن نزول القرآن العظيم ، كان حادثة فريدةً في تاريخ البشر ، وأنها حقيقة تاريخية واقعة = وأنّ مطالبة عرب الجاهلية بتبيُّـن أن «كلام الله» الدالّ على نبوّةِ تاليه حقيقة تاريخية واقعة = وأن النتائج المترتبة على هذه المطالبة هى أيضًا حقائق تاريخية واقعة .

فمن هذه النتائج هذا التذوُّق الذي لا يكون للمطالبة به معنى يُعْقَل البتة إلا أن يكون كائنًا في عرب الجاهلية المُطالبين بأن يتبينوا أنّ هذا الكلام المتلوَّ عليهم آيةٌ من آيات الله التي توجب عليهم أن يقطعوا بأن صاحبها نبيٌّ الله ، كما قطعت آياتُ موسى بأنّه نبيٌّ ، وآيات عيسى بأنّه نبيٌّ ، وأنّ البلاغ الملفوظ ، هو كالبلاغ المعايَن بالمشاهدة ، ينخلعون له من قواهم انخلاعًا يوجب التسليم بأنّ صاحبه كمثلهم ، لا يستطيعُ أن يأتى به من عند نفسه وبفعله ، بل هو من عند رب العالمين ، أنزله عليه سبحانه بسلطانهِ القاهر ؛ ليكون آية على نُبُوته . والتذوّق المُفْضى إلى هذا التبيُّن الذي لا عَهد للبشر بمثله ، ينبغي أن يتمَّ لأصحابه بَعْدَ الدُّربة الطَّويلة المتوارثة . ثم لا يبلُغُ هذه المرتبة من القدرة على الفَصْل في هذه الآية الفريدةِ في تاريخ الألسنة البشرية ، إلّا بعد أن يمارسَ الفصْل والتفضيل والمايلة والمقايسة على ضروب من الكلام قد بلغت القِمَّة الشامخة في البيان الإنسانيّ ، أو على الأصح بلغت من النقاء والدقة والأناقة واللطفِ أقْصَى غاية ، وبلغت من العُمق في الدلالة بالألفاظ والتراكيب والصور ، أقصى التوتُّر المفضى إلى سرّ البيان الكامن في نفوس البشر . وإلّا يكن ذلك كذلك فإن اختراق

الحاجز بين البيان الإنسانى والبلاغ الإلهى الملفوظ، يكادُ عندئذٍ يبلُغ حدَّ الاستحالة، مع ما فى المطالبة به فجأة وبلا مثال سَابق من المناقضة للإلف الراسخ في الطبائع. ولذلك كان مقطوعًا به أنّ لُغتهم عند البعثة كانت قد اكتسبت من المرونَةِ واللطف والدقة والإِحكامِ الفائق، مبلغًا يهيئها لحمل هذه الآية الفريدة في آيات النبيين = وأن أنبل كلامهم وأشرفه، وهو الشعر الجاهلى، كان قد بلغ أيضا مثل هذه المنزلة ليكون تذوُّقهم إياه مُعِينًا لهم على تذوُّق البلاغ الملفوظ الذي أنزله الله على رجلٍ منهم، قد لَبثَ فيهم عمرًا من قبله أربعين سنة، ما كان يدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ثم جاءهم به ليكون آية نبوته، دون الآيات المعاينة التي انخلع لها البشر من قواهم، فآمنوا بالمبعوثين إليهم من أنبياء ربِّهم.

وهذه أيضًا حقيقة تاريخية واقعة أُخرى، ناتجة عن الحقيقة التاريخية الواقعة، وهي مطالبة عرب الجاهلية الذين أظلهم الإسلام بأن يتبينوا في سرِّ أنفسهم أن هذا القرآن المتلوَّ عليهم، هو « كلام الله » لا كلام النبي ﷺ، وأنه مباينٌ لكلام البشر، ومعجزٌ قدرتهم بل قدرة الثقلين جميعًا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ ﴾ [الرعد: ٣١] وصدق الله ورسوله، فهذا حقُّ كلام الله، المنزل على نبيّه ﷺ.

وإذنْ، فالشعر الجاهليُّ الذي مارس عليه عرب الجاهلية تذوُّقهم قرونًا حتى بلغ التذوق ما بَلغَ، تكمن فيه وفي بيانه هذه الصفات المرْبية على ما في سائر الألسنة من الصِّفات إرباءً حقيقًا بالتأمُّل والتبيُّن، لأن هذه حقيقته التي دلَّتْ عليها هذه المطالبة الفريدة لجنس واحد من البشر في زمانٍ واحد من الأزمنة، ختمت بآيته النبوّةُ في الأرض إلى أن تقوم الساعة. وإذا كانت هذه الحقيقة قد

عُمِّيتْ علينا دهرًا . ولا نزال نزدادُ عنها عَمىً ، فإنّ ذلك لا ينفى عنها أنها حقيقة قائمة ، وإنما هو الإلف والعجز والتهاون وقلة المبالاةِ ، ورذائل فينا بعد ذلك كثيرة . إنها حقيقة واقعة كامنة في القليل الباقي بتقصيرنا من الشعر الجاهلى ، يعلم ذلك من يعلمه ، ويجهلُه من يجهله ، ويقرُّه من يقرُّه ، وينكرُهُ من ينكره . وجاهلُه مقَصِّر في حقِّ نفسه وفي حق الله عليه، ومنكره ليس إنكارُه ما ينكر منه بأعجب ولا أغربَ من إنكار عرب الجاهلية الذين كفروا بالنبوّة ، وهم يحسُّون في دخيلة أنفسهم أن دليل النبوّة ، وهو القرآن ، قد أعجزهم وانخلعوا له من قواهم بالعجز الفاضح ، ولكنهم أصروا ، مع ذلك ، على الإعراض والكفر إصرارًا ، حتى قضى الله فيهم قضاءه ، بظهور الإسلام على الكفر ضربة لازبٍ .

* * *

كانَ عربُ الجاهلية الذين اجتازوا هذه المحنة الهائلة المفزعة المزلزلةَ التي امتحنوا بها دون غيرهم من البشر ، وامتحن بها تذوُّقهم للبيان الإنسانيّ حتى تبيّنوا فرق ما بينه وبين البيان الإلهي = كان هؤلاء قد اجتازوا المحنة ومعهم شِعْر جاهليتهم الذي مارسوا عليه أروعَ تكليف في تاريخ البشر . فلم يفارقوا هذا الشعر بعد ذلك في غُدُوٍّ ولا رَوَاح ، ولا في منزل ولافى مسير ، ولا في ليل ولا في نهار ، ولا في سِلْم ولا في حَرْب ، ولا في جماعة ولا في خلوة ، وقد دلَّت الأخبار المتظاهرة عن أصحاب رسول الله ﷺ على أن ذلك كما وصفت . وأن رسول الله ﷺ كان يشاركهم مصغيًا في مجالسهم ، وأنه كان يستنشدهم شعر جاهليتهم في إقامته وفي مسيره . ودلت الأخبار أيضًا على أن ذلك كان جاريًا على عادتهم الموروثة المعرقة منذ أقدم عصور الجاهلية ، قد أَلِفوها إلفًا لا يزول ولا يتحوَّلُ ، ولم يكن ذلك بعجيب ولا مناقض لمَا خضعوا لهُ من حُبّ ذكر الله بألسنتهم ، ولا لطول تلاوتهم لكلام ربهم واستماعه فتقشعر له قلوبهم خشوعًا وإسلامًا ، ولا لتدبُّرِ القرآنِ التماسًا لما فيه من العلم والحكمة ، بل العجيبُ أن لا يلزموا ما كان عليه أمرُهـم في الجاهلية من تذوُّق البيان ، الذي

أرهفَ قلوبهم وعقُولهم حتى اجتازوا به المحنة التي هلك عليها منهم من هلك، ونجا من نجا. وكان ذلك شأن الصحابة وسائر من أسْلَم من عرب الجاهلية في الحاضرة والبادية، لم يزدهُم نزول القرآن وتحدِّيه لهم إلا حرصًا على شعر جاهليتهم، وشَغَفًا بإنشاده وتمثله في المشاهد وفي الخلوات. ولحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى وجاء أبو بكر، وجاء عمر، وجاء عثمان، وجاء عليٌّ، وجاء معاوية، وذلك شأن أهل الحواضر من الصحابة، وأهل البادية، مِمَّن صحبَ أو وَفَد عليه ﷺ، أو أسْلَم ولم يَصْحبْه. وفي خلال تلك السنوات المتطاولة، نشأت الناشئة من أبنائهم ومن مواليهم، وممن أسلم من جميع أطراف الأرض العربية وغير العربية، وكان شأنهم جميعًا شَأن جلّة الصحابة، واكتسبوا منهم هذا التذوُّق الرائع النافذ المذهِل، بممارسة تذوُّق هذا الشعر الجاهلى الذي هو ديوان علم العرب، كما قال عمر رضى الله عنه، والذي هو الغايةُ التي يُفْضي تذوقها إلى تبيُّن أن هذا المتلوَّ في المساجد والمشاهِد والمحافل العظام، هو «كلام الله»، فتقشعرُّ له قلوبهم، كما اقشعرت قلوبُ الصحابة من قبلُ حين امتحنوا، وبعد أن جازوا المحنة مسلمين.

وبيِّن كُلَّ البيان أن أمر الشعر الجاهلى في عهد الصحابة، ثم في عهد كبار التابعين، كان جدًّا كلُّه، وأنّه كانَ منصوبًا قائمًا في الأنفُس والألسنة، في الشهود والخلوة، لهذا التذوّق النافذ البصير الهادي إلى تذوق القرآن تذوقًا تنخلع له النفسُ من كُلِّ قوتها حتى تستيقن أنه «كلام الله» الذي تخشع له الجبال وتتصدّعُ، وإذا كان ذلك كذلك، وهو الحقُّ إن شاء الله، فهلْ يمكن أن يتصوَّر امرؤ أدرك أن ذلك كُلَّه كان حقيقة تاريخية واقعة لا شكَّ فيها، أن يعمد صحابي أو تابعي، في حاضرة أو بادية إلى وضع شعرٍ على لسان امرىء القيس أو طرفة أو أبى دُؤادِ الإيادىّ، أو المتلمس، أو النابغة، أو زُهَيرٍ، أو من شئت من شعراء الجاهلية = إلا أن يكون هذا المرء هازلًا هزلًا لا خير فيه، أو لا عقل فيه إن شئت.

وإذا كانَ هذا الشعر من الوفرة والكثرة والتنوّع، على قدر وفرة الصحابة

الذين أسلموا ، ووفرة من كان معهم ممن لم يصحب رسولَ الله ﷺ ، في الحواضر والبَوَادى ، فهل تظنُّ أن أحدًا كانَ في حاجة إلى وضع شعر على ألسنة شعراء الجاهلية ؟ وإذا كان تناشدُ الأشعار ، على سنتهم في جاهليتهم ، قائمًا في كُلِّ مكانٍ ، فهل تَظنُّه سهلًا على أحدٍ أن يفضح نَفسه بافتعالِ شعرٍ ينسبُه إلى جاهليّ قديم ، وفي الناس من هو قادرٌ على تكذيبه والنكير عليه ؟ وعلى ذلك قِس أمر كبار التابعين ، فإن ذلك الوضع محال أن يكون كان ، أو أن تكون بأحدٍ منهم حاجةٌ إلى هذا الوضع الذي هو هزلٌ ، بل شرٌّ من الهزل .

وإذن ، فالشعر الجاهلي ظَلَّ سليمًا مبرَّأً محفوفًا بالصدق ، حتى انقضتْ نحو مئة عام منذ هجرته ﷺ من مكَّة إلى المدينة ، وإن كانت قد تناقصت وفرته ، كما قال محمد بن سلام في كتابه «الطبقات» وذلك «حين هلك من العرب بالموت والقتل من هلك » ، في الفتن ، وفي الفتوح التي امتدت من أقصى الصين إلى أرض الأندلس ، ثم بما كان من تفرُّق حفاظه ومتمثليه في البلدان المتباعدة ، وإن كانت البادية بعد ذلك كُلِّه قد حفظت على العرب ذخائر ما كانَ من شعر جاهليتهم ، بفضل من بقي فيها من الأبناء والنساء والشيوخ الذين لا طاقة لهم بقتال ولا بغزو ولا بضرب في الأرض البعيدة الغريبة .

وبذلك نعلم علمَ يقينٍ أيضًا أنّ العلماء بالشعر من أهل البصرة وحدها والذين لكلِّ رجلٍ منهم قول فيه ، كما قال ابن سلام ، والذين بدأ ذكرهم بأبى الأسود الدؤليّ المتوفي في الطاعون الجارف سنة تسع وستين ، ومات عن خمسٍ وثمانين سنة ، وولد في الجاهلية قبل البعثة بثلاث سنوات ، وأخذ عنه الناس الشعر ، كما ذكرتُ حتى انتهت رواية من أخذ عنه إلى من بعده ، إلى أن انتهت الرواية إلى عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي المولود سنة تسع وثلاثين من الهجرة ، والمتوفى سنة ١٢٧ ، ومعه يومئذ أبو عمرو بن العلاء الذي بقي بعده بقاء طويلًا حتى مات سنة ١٥٩ = أقول : بذلك نعلم أنّ هؤلاء العلماء بالشعر إلى زمن أبي عمرو قد تلقوا شعر الجاهلية سليمًا مبرَّأً خاليًا من الشوائب ، وإن كان لم ينته إليهم منه إلّا القليل ، وصدق أبو عمرو بن العلاء حين قال :

«ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّا أقلُّه، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثيرٌ» وصدق مرةً أُخرى، لأنّ هذه حقيقة تاريخية أخرى، تدلُّ عليها الحقائق التاريخية الواقعة التي سقتها، دلالة تقطع عليها بالصِّدق، وبذكاء قائلها ونفاذ بصره، وإن كان ابن سلام قد فسَّرها تفسيرًا سيئا جدًّا حين قال: «فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب (أي عن الشعر). وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم. ولهت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ... راجعوا رواية الشعر». وقد بينت فساد هذا التعليل آنفًا بحمد الله.

وإذنْ فالشعر الجاهلي، السليم المبرَّأ من العيب، ظَلَّ محفوفًا بالكرامة والصدق حتى تلقَّاه العلماء بالشعر إلى أواخر المئة الأولى من الهجرة، وكان، قبل أن تُفتحَ أبواب العلوم العربية في عهدها المبكِّر، منصوبًا للتذوُّق البَصير لأعلَى البيان الإنساني وأسناه، وكان الناس يتلقونه جوادًا سابقا كما وصفه ابن مقبلٍ فيما ذكرته آنفا:

إذا متُّ عن ذكر القوافي، فلن ترىْ ... لهَا تاليًا مثْلى أطبَّ وأشعرا
وأكثر بيتا شاردًا ضربتْ لَهُ ... حُزُون جبال الشعر حتى تيسَّرا
أغرَّ غريبًا، يمسَحُ النَّاسُ وجْهه ... كما تمسح الأيدى الأغرَّ المشهَّرا

وبما قاله الجاهليُّ الآخر، في أريحية سامعه وخيلائه.

فإن أَهْلِكْ فقد أبقيتُ بعدي ... قوافيَ تُعجبُ المتمثِّلينا
لذيذاتِ المقاطع محكماتٍ ... لوَ آنَّ الشعر يلبس لارتدينَا

وأمَّا كبيرُ المشككين في الشعر الجاهليّ والنافين لصحة ما عندنا منه، فقد أساء وأوقد فتنةً لم تَخْبُ بعدُ حين ختم كلامه وشكه بقوله: «أما نحنُ فمطمئنونَ إلى مذهبنا، مقتنعون بأن الشعر الجاهليّ أو كثرة هذا الشعر الجاهليّ لا تمثل شيئًا، ولا تدلُّ على شيء، إلا ما قدَّمنا من العبث والكذب والانتحال. وأنّ الوجه إذا لم يكن بُدٌّ من الاستدلال بنص على نصّ - إنما هو الاستدلال بنصوص القرآن على عربية هذا الشعر، لا بهذا الشعر على عربية القرآن».

ويؤسفني أن أقول إن صدر كلامه عن بطلان دلالة الشعر الجاهليّ على شيء، دالٌّ على تقصير محزنٍ في الاطلاع على هذا الشعر، وعلى سوء تذوُّقه. ومع ذلك، فقد بيَّنْتُ مرارًا أنه قد نقض هو نفسه مقالته هذه بما كتبه بعد ذلك عن بعض الشعر الجاهلي. وأما مسألة الاستدلال التي ذكرها، فإن كان يريد بقوله «عربية القرآن» و «عربية الشعر الجاهلي» ما يتعلق بالنحو والصرف واللغة وما إليها – وهو لا يريدُ ذلك بلا شك – فإن الاستدلال بالشعر الجاهلي على بعض ما في القرآن، وبالقرآن على بعض ما في الشعر الجاهليّ من نَحْو وصرف ولغة، إنما هو أمرٌ هيِّنٌ لا خطر له في بحثه، وكلاهما مألوف معروف في جميع كتب العربية. وإن كان يريد بقوله: «عربية القرآن» أن يستدلَّ بعربية الشعر الجاهلي أن القرآن عربيٌّ مبينٌ، فأظنُّه ظاهرًا جدًّا أنه محالٌ أن يجد امرءًا عاقلًا أو غير عاقل من الماضين والحاضرين، ومن العرب ومن سائر المسلمين، من فعل ذلك أو فكّر فيه، إلّا أن يكون عنى أعجميًا مستشرقًا من أهل زماننا فَعَله أو كتبه! أما العرب والمسلمون منذ نزول القرآن، فإنهم كانوا يتذوقون هذا الشعر الجاهلي، أو يحرصون عليه ليتذوقوه، حتى يجدوا في أنفسهم القدرة على التذوُّق الفاصل الذي يرهف إحساسَهُم ليستمعوا إلى «كلام الله» مخبتين مُقِرين لنبيِّهم بأنه أدَّى الأمانة، وبلَّغ عن ربِّه ما أمرَه أن يبلغه.

وإذن فهي كما ترى كلمة مُطَّرَحة لا وزن لها ولا خير فيها. وهي مبنية على مغالطة مزيَّفة، وليس فيها إلا رنينُ ألفاظ مركبة ليس لها معنى ولا حقيقة. ومع ذلك، فقد صدعتْ في بعض العقول صدْعًا بائنًا، وأفسدت بفسادها بعض ما كانَ خليقًا أن يَسْلَم ويصحَّ.

وصلى الله على محمد صلاة طيبة زاكية مباركة، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *



فهرس الحديث والآثار

* * *

فهرس الشعر

فهرس الكتب

اسم الكتاب	رقم الصفحة
المعجم الكبير للطبرانى	١٥
الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم	٧٥

* * *

فهــرس الموضوعــات

الموضوع	الصفحة

* * *